

الباب الثاني

الطراز العباسي

العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٤٤٧ هـ) (٧٥٠ - ١٠٥٥ م)

العراق وشمال أفريقيا - مصر - إيران - خراسان - أفغانستان :

كثرت الاضطرابات في أواخر عهد الدولة الأموية وكان ذلك في فترة حكم مروان الثاني الذي اتخذ حران عاصمة له ، وفي عام ١٢٩ هـ - ٧٤٧ م جاهر العباسيون بعدائهم للأمويين واتهموهم بإهمال شئون الدولة الإسلامية ، وتمكنوا من هزيمة الخليفة مروان في موقعة الزاب عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م ، ففر إلى مصر وبذلك تم للعباسيين الاستيلاء على الخلافة الإسلامية عام ٧٥٠ م .

فضل العباسيون نقل مقر حكم الخلافة الإسلامية من دمشق مركز نفوذ الأمويين إلى مكان قريب من إيران التي ظهرت فيها الاضطرابات ضد الأمويين ، فوقع اختيار أبي العباس - شقيق إبراهيم رأس البيت العباسي - على الكوفة في جنوب العراق لتكون مركزاً للحكم العباسي . وفي عهد خليفته « أبي جعفر المنصور » (١٣٦ - ١٥٧ هـ) (٧٥٤ م - ٧٧٥ م) أنشئت عاصمة جديدة للدولة العباسية في عام ١٤٤ هـ - ٧٦٢ م عرفت باسم بغداد ، وبذلك استبدل حكم الأمويين للعالم الإسلامي بالحكم العباسي . وكان من نتائج انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد القريبة من المداخن عاصمة الساسانيين ، أن ظهر لأول مرة نفوذ عنصر غير عربي في حكم البلاد الإسلامية هو العنصر الفارسي الذي ساعد رجاله العباسيين على الاستيلاء على الخلافة الإسلامية . ولقد كافأهم الحكام العباسيون بتعيينهم في مناصب كبيرة ، كما اعتمد الخلفاء على وزراء من أسرة البرامكة الفارسية . ولقد شجع الوزراء الفرس انتشار التقاليد الفارسية في البلاد الإسلامية التي انفرد العرب وحدهم قبل ذلك بتسيير شئونها . ولقد أدى ذلك إلى تفوق الثقافة الفارسية على الثقافة العربية في تلك البلاد .

حاول أبو إسحق المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) (٨٣٣ - ٨٤٢ م) الحد من نفوذ العنصر الفارسي وذلك باتخاذ حرس خاص له من بين الولايات التركية الموالية للخلافة العباسية في بعض أقاليم آسيا الغربية^(١)، حيث كانوا بطبيعتهم رجال حرب. وكان ذلك بدء ظهور العنصر التركي في الدولة العباسية، إلا أن بأسهم سرعان ما عظم إلى درجة أن تمكن زعمائهم من التحكم في الخليفة المعتصم، وصاروا الحكام الفعليين للدولة العباسية التي شمل حكمها العراق ومصر وإيران وخراسان وشمال أفريقيا وسوريا.

كان من أثر ضعف الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري «التاسع الميلادي» أن أخذت بعض البلاد التابعة للدولة العباسية تنفض تبعاً عن السلطة المركزية وتستقل سياسياً بحكومتها. فأقام «الأغالبة» دولة مستقلة في شمال أفريقيا مركزها تونس في أوائل القرن التاسع الميلادي^(٢)، كما استقل «إدريس بن عبد الله المغربي» بحكم شمال غرب أفريقيا. واستطاع الولاة الفرس الاستقلال بولاياتهم عن الحكومة المركزية في بغداد، فأسس السامانيون والبويهيون في أوائل القرن التاسع والعاشر الميلادي دويلات مستقلة في العراق وشرق إيران وبلاد ما وراء النهر. ونتج عن هذا الاستقلال السياسي استقلال في الأسلوب الفني في بلاد الفرس وكان من نتيجته إحياء التقاليد القومية الساسانية وتشجيعها على الازدهار والانتشار. ولقد استمرت بعض التقاليد التركية مزدهرة في مصر التي استقل بحكمها أحمد بن طولون التركي الأصل بعد منتصف القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي. وفي أواخر القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي أقام الغزنويون الأتراك حكومات مستقلة في أفغانستان والبنجاب بالهند.

ولقد كان العنصر التركي الذي ساند الخلافة العباسية في أوائل القرن التاسع الميلادي سبباً في ضعف نفوذها السياسي في القرن الحادي عشر الميلادي، حيث تمكن السلاجقة الأتراك الذين نجحوا في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي في القضاء

(١) كانت الجندية مقصورة على العرب حتى عهد الخليفة أبي إسحاق المعتصم الذي كانت أمه تركية فأكثر من الهند الأتراك في عاصمته.

(٢) بالرغم من استقلال الأغالبة بحكم شمال أفريقيا وتوارثهم الحكم فيها من ١٨٤ - ٢٩٦ هـ ٨٠٠ - ٩٠٩ م إلا أن الحكام العباسيين استمروا في تعيين ولاية من بغداد يحكمون مع الأغالبة.

على الأسر الحاكمة في أفغانستان وخراسان وإيران وآسيا الصغرى وسوريا ، من دخول مدينة بغداد عام ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م والاستيلاء على الحكم في فترة حكم الخليفة القائم بالله ، وأرغموا الخليفة على تنصيب زعيمهم (طغرل بك) سلطاناً . وكانت بغداد حين دمرها المغول عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ولاية سلجوقية .

ويمكن تقسيم الدولة العباسية الأولى إلى فترتين : الفترة الأولى وتمتد منذ نشأة الدولة عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م إلى آخر أيام المأمون عام ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م ، وفيها بلغت الدولة قمة مجدها الحضارى وتعرف بالعصر الزاهر . والفترة الثانية تبتدئ بخلافة المعتصم وتنتهى باستيلاء السلاجقة على الدولة العباسية . ولقد ضعفت الدولة فيها واستقل ولائهم بحكم الولايات التى يحكمونها ..

obeikandi.com

الفصل الأول

العراق

وشمال إفريقيا

أصبحت بغداد العاصمة الجديدة مركزاً مهماً للعلوم والفنون الإسلامية . كما نافست القسطنطينية عاصمة الرومان الشرقيين في رخائها المادى ، ولقد ذاع صيت بغداد في عهد هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين (١٧٠ - ١٩٣ هـ) (٧٨٦ - ٨٠٩ م) . وظلت بغداد محتفظة بأهميتها الثقافية في العالم الإسلامى حتى الغزو المغولى . ولم تقل فترة سيطرة السلاجقة على الخليفة من أهميتها .

قلد الخلفاء العباسيون الحكام الساسانيين في تشييد عواصم جديدة لهم بمجرد توليهم الحكم ، فشيد المعتصم عاصمة جديدة شمال بغداد في سنة ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م عرفت باسم سمراء ^(١) وكانت مقر الحكم لثمانية من الخلفاء في الفترة (٢٢١ - ٢٧٩ هـ) (٨٣٦ - ٨٩٢ م) .

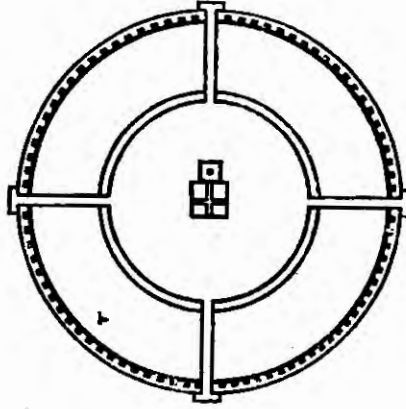
كما شيد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذى كان من أعظم الخلفاء العباسيين قبل وفاته ، عاصمة جديدة شمال سمراء أسماها الجعفرية (أبو دلف) . إلا أن سمراء لم تعد إلى عزها القديم بعد أن انتقل مقر الحكم مرة ثانية إلى بغداد في عصر المعتضد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) (٨٧٠ - ٨٩٢ م) .

العمارة :

لم يترك التدمير الذى أصاب مدينة بغداد إثر الغزو المغولى أية آثار معمارية تمكننا من معرفة أية معلومات عنها . وتعتمد معلومات مؤرخى الفنون على بعض المراجع التاريخية التى أشادت بروعة وجمال هذه المدينة ^(٢) .

(١) عندما زادت سيطرة الجنود الأتراك في بغداد فكر المعتصم في تركها إلى عاصمة جديدة يشيدها . كريزويل ماقبله ص ٢٥٩ .

(٢) وصف مدينة بغداد جاء في كتاب « البلدان » للياقوتى الذى عاش في أواخر القرن التاسع الميلادى كذلك كتب عنها ابن الجوزى (مناقب بغداد) ص ١٥ .



و - تصميم مدينة بغداد

كلف الخليفة أبو جعفر المنصور مهندساً فارسياً بمهمة تشييد عاصمته الجديدة فاختار لها تصميمًا على شكل دائرة كاملة ، واستخدم لها العمال الفنيين من جميع أنحاء البلاد الإسلامية . ويحيط بالمدينة (تصميم و) سوران رئيسيان ، الخارجى وتقع به مداخل المدينة الأربعة : باب الكوفة فى اتجاه الشمال ، وباب البصرة فى جهة الجنوب . وباب خراسان فى الجهة الشرقية ، وباب الشام فى الجهة الغربية . ويحيط بالسور الخارجى خندق عرضه ستة أمتار . أما السور الداخلى فهو أكثر ارتفاعاً ويوجد به أبراج مستديرة للحراسة . وقطاع هذه الأسوار عريض ، ويوجد بالجزء العلوى منه دهليز خاص بجند الحراسة مغطى بقبو .

ويقع قصر الخليفة فى مركز الميدان الذى يتوسط المدينة ، وكان يعرف باسم القبة الخضراء أو القصر ذى البوابة الذهبية ، حيث كان يغطى القصر قبة مرتفعة خضراء يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة . وكان يالحق بهذا القصر مسجد كان تصميمه غالباً على نمط المسجد ذى الصحن المكشوف الذى عرف فى العصر الأموى . ويحيط بالميدان الفسيح سوران آخران تقع بينهما مساكن المدينة ، وقد قسمت إلى أربعة أجزاء عن طريق أربعة مداخل ضيقة طويلة ، ويشتمل كل منها على شوارع ضيقة .

ويجتاز الداخل إلى المدينة الخندق عن طريق قنطرة موصلة إلى مدخل طويل ضيق مغطى بقبو نصف أسطواني . ولا يصل الداخل إلى القناء المكشوف مباشرة بل عليه أن ينحرف إلى يسار المدخل ، ويعرف المدخل المصمم على هيئة زاوية قائمة باسم المدخل المنحني .

وتبدو مدينة بغداد بهذا التصميم محصنة تحصيناً منيعاً . فالمدخل المنحني يساعد على الحد من شدة الهجوم على مداخل المدينة . وتعد هذه المداخل المنحنية ابتكاراً جديداً ظهر في العمارة الإسلامية لأول مرة . كما أن تزويد أسوار المدينة بأبراج للحراسة لم يعرف من قبل في العمارة الأموية ، حيث إن أبراج أسوار قصورها كان الغرض منه زخرفياً فقط . ووجود القصر في مركز هذه التحصينات كان فكرة جديدة ظهرت في العمارة الإسلامية . ومن المرجح أيضاً أن تخطيط قصر « المنصور » كان على نمط القصور الساسانية التي كان بعضها لا يزال قائماً في المدائن عند تشييد بغداد ، حيث ذكر أن القصر كان يشتمل على فناء للاحتفالات وإيوان ، وقاعة العرش المغطاة بالقبة الخضراء ^(١) .

ولقد كرر المنصور مرة ثانية هذا التخطيط عندما شيد مدينة قريبة من الرقة على نهر الفرات في شمال العراق ، كان شكلها على هيئة حدوة حصان ، وأسوارها المزدوجة مشيدة باللبن ومحصنة بأبراج . ولا يزال جزء من سور هذه المدينة قائماً ، ويقع به مدخل عرف باسم مدخل بغداد (ش ١٧) ، قد شيده هارون الرشيد عندما اتخذ الرقة عاصمة له في الفترة (١٨٠-١٩٢ هـ) (٧٩٦-٨٠٨ م) . ويلاحظ أن شكل العقد المدبب الذي وجد في مدينة الرقة في مدخل بغداد لم يعرف من قبل في سوريا بالرغم من قرب الرقة منها ، علماً بأنه كان معروفاً في عمارة المدائن الساسانية ^(٢) .

ويمكن نسبة تصميم بغداد الدائري إلى العمارة الفارسية ، حيث شيد الملك « أردشير » مؤسس الدولة الساسانية عاصمته « فيروز آباد » على شكل دائرة . ولقد نقل ذلك عن أسلافه البارزين الذين شيّدوا مدينة « هاترا » على شكل دائرة .

(١) الطبري ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) يميز مدخل قصر المدائن عقد مدبب (انظر كتابنا « فنون الشرق الأوسط القديم » ماقبله ص ٢٩٦ شكل ٢٢٦) .

كذلك ربما نقل العباسيون فكرة تحصين المدينة بأسوار مدعمة بأبراج الحراسة من أسوار مدينة بابل المحصنة التي وجدت في العراق القديم^(١).

استقدم « المعتصم » العمال المهرة والفنيين من كل أنحاء الإمبراطورية لتشييد العاصمة سمراء ، وكانت هذه المدينة تعد من أجمل المدن التي شيدها الحكام المسلمون . ولقد كشفت الحفريات التي أجراها الأستاذان « زرة » و « هرتسفلد » على أن المدينة اشتملت على قصور وأسواق ومساجد وملاعب . كما كان بها أجزاء خاصة لسكن فرق الجيش التركي وموظفي الدولة والأهالي . ولقد زينت جدران قصور هذه المدينة بالصور الحائطية الملونة والزخارف الحصية . كما وجدت بها وسائل الرفاهية والحمامات والنافورات . ولم يتبق قائماً من هذه المشيدات ، إلا جامع سمراء ومسجد أبو دلف ، وأساسات بعض القصور وبوابة قصر الجوسق التي تعرف باسم باب العامة .

عمارة المساجد :

لم يتبق من الجامع الكبير الذي شيده المنصور في بغداد سوى محراب من الممر مزخرف بنقوش ذات طراز أموي ، وقد استمر هذا الأسلوب بطبيعة الحال في أوائل العهد العباسي الأول . أما مسجد الرقة الذي شيده المنصور في عام ١٥٥ هـ - ٧٧٢ م فتدل الآثار القليلة التي بقيت منه على أن تخطيطه كان مستطيلاً يتوسطه صحن ، كما أن عمارته جمعت بين العناصر الأموية القديمة وأساليب بلاد النهرين القديمة . ونلاحظ أن المزج بين الطوب اللبن والآجر الذي استخدم في تشييد الجدران والعقود هو أسلوب عرف قبل ذلك في كنائس النسطوريين في الحيرة ، أما تعدد البوابات فهو أسلوب عراقي قديم .

ومن المساجد التي شيدت في سمراء بعد أن صارت العاصمة . الجامع سمراء الذي شيده « المتوكل » ومسجد « أبو دلف » الذي شيد عام ٢٤٦ هـ - ٨٦٠ م في شرق المدينة . ولم يتبق من آثار جامع سمراء الذي بدئ في تشييده عام ٢٣٤ هـ ٨٤٨ م إلا السور الخارجي والمئذنة . (ش ١٨) . ويتضح من الآثار المتبقية من

(١) انظر كتابنا فنون الشرق الأوسط القديم . ماقبله ص ٢٠٣ .

مبانيه أن الجامع أقيم على مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مكشوف تحيط به أروقة أكبرها رواق القبلة . ويعد هذا المسجد من أكبر المساجد الإسلامية ، إذ يبلغ طول أضلاعه ٢٦٠ م - ١٨٠ م ، ويحيط به من الخارج سور من الطوب الآجر ارتفاعه عشرة أمتار وتدعمه أبراج نصف دائرية بارزة عن الجدران بحوالى مترين عددها أربعون برجاً . وكان الجزء المسقف يرتكز على دعائم مثمثة الأضلاع متصلة بأعمدة من الرخام في الأركان . ويحتوى رواق القبلة على ٢٤ صفاً من الدعائم تكون ٢٥ بلاطة . ويوجد بالرواق الشرقى والغربى أربعة صفوف من الدعائم ، أما الجهة الشمالية فيوجد بها ثلاثة صفوف فقط . ويحف بمحراب الجامع زوجان من الأعمدة الرخامية المنتهية بتيجان رومانية . وتقع مثذنته الحلزونية (ش ١٨ ب) خارج السور من الناحية الشمالية في أولى الزيادات التى أضيفت للمسجد في العهود التالية ، وتتميز هذه المثذنة بتصميم فريد لم يظهر من قبل في عمارة المساجد الإسلامية حيث أقيمت على قاعدة مربعة ارتفاعها ثلاثة أمتار ، ويرتفع فوق هذه القاعدة برج حلزوني درجاته من الخارج . ويتشابه تصميم جامع أبى دلف ومثذنته الملوية مع جامع سمراء .

وبدراسة جامع سمراء نلاحظ ظهور تطور طراً على عمارة المساجد في العصر العباسي مع بقاء بعض الأساليب الأموية ، حيث استبدلت الأعمدة الحجرية التى استخدمت في العصر الأموى بدعامات تحمل السقف مشيدة بالآجر ، وغالباً ما تزود هذه الدعائم بأعمدة متصلة بها من الجانبين . كما يلاحظ أن القبة قد استغنى عنها ، وأن المثذنة قد شيدت خارج المسجد . وتذكرنا هذه المثذنة الحلزونية بشكل الأبراج البابلية المدرجة « الزقورة »^(١) التى وجدت قديماً في العراق وربما استمدت فكرتها أيضاً من معابد النار الفارسية . أما الأساليب الأموية التى استمرت ، فهى تخطيط الجامع على مساحة مستطيلة ، واتساع رواق القبلة الذى يتكون من ثلاث بلاطات ، وموازة الدعائم التى تحمل السقف لجدار القبلة .

ويتكرر ظهور عناصر سمراء المعمارية في مسجد أبى دلف وخاصة في مثذنته

(١) تطلق كلمة « الزقورة » على المصاطب المدرجة التى تحمل المعابد في بلاد النهرين والى وجدت

في البلاد السورية والبابلية .

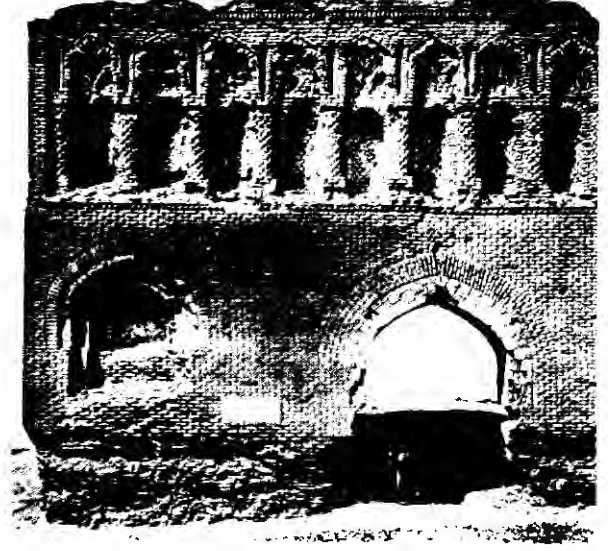
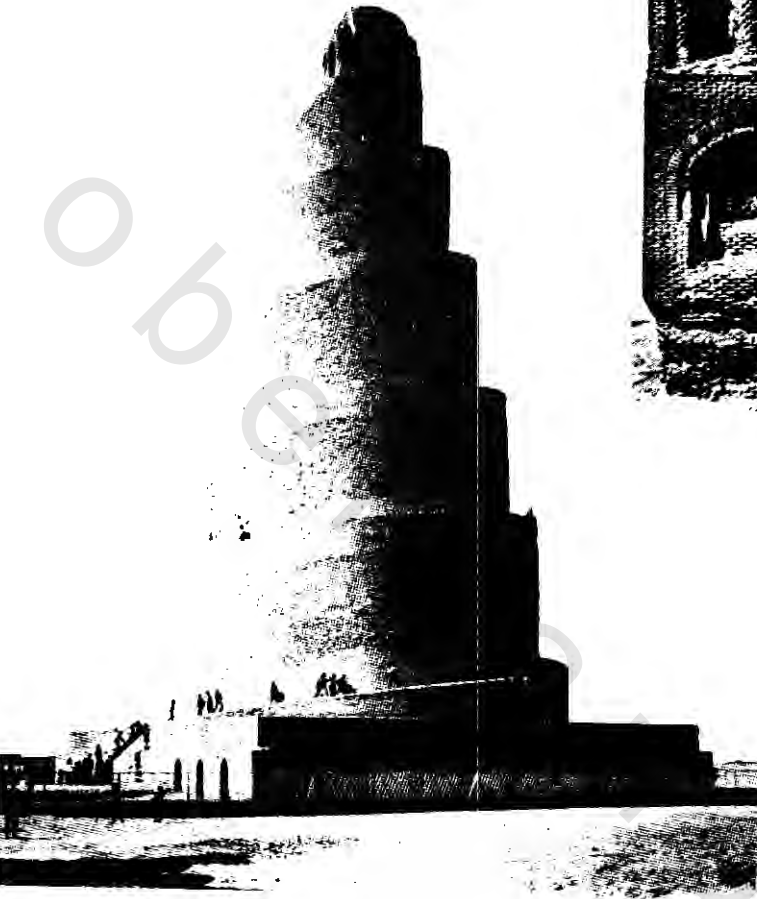
كما تظهر في مساجد الولايات التابعة للخلافة العباسية أساليب معمارية عراقية ،
فأراها في مصر في جامع « ابن طولون » وفي إيران في جامع نايين الذي شيده
« البويهيون » .

عمارة القصور :

نشطت حركة العمارة المدنية نشاطاً كبيراً في العصر العباسي الأول حيث اهتم
الخلفاء بتشييد قصور لهم في المدن التي أنشأوها . فبنى « المنصور » « القصر الذهبي »
في بغداد ، وشيد « الرشيد » قصراً له في الرقة ما زالت بقاياه موجودة . وبنى المعتصم
قصر « الجوسق » في سمراء ، كما شيد « المتوكل » قصور « العروس » « والمختار »
« والوحيد » ، والقصر « الجعفرى » في الجعفرية . ولقد شيد لابنه « المعتز » قصر
« بلكوارا » . وشيد « المعتز » في سمراء قصر « العاشق » كما أقيم قصر « أخضر »
على بعد أربعين كيلو متراً جنوبي غرب الكربلاء . وتتميز جميع هذه القصور
بمتانة عمارتها وبوسائل الرفاهية المزودة بها ، كالحمامات والنافورات ، كما زخرف
بعضها بالتصاوير الجدارية بالإضافة إلى كسوتها بالزخارف الحصية . ولقد وجدت
بين هذه الزخارف الجدارية بلاطات خزفية ذات بريق معدني .

شيد الخليفة « المعتصم » في حوالى ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م قصر « الجوسق الخائقي »
بمحاذاة نهر الدجلة ، ويصل المرء من مستوى النهر إلى مدخل القصر الذي يقع
بالواجهة المطلّة على النهر عن طريق به درجات . ويتكون المدخل من ثلاث بوابات
لا تزال إحداها باقية حتى الآن تعرف باسم باب « العامة » ، ويتضح من عمارته
أن الآجر قد استخدم في تشييد القصر . وتعد المباني التي كانت بهذا القصر أكبر
مجموعة من المشيدات وجدت في قصر واحد . وقد قام بالتنقيب عن هذا القصر
الأستاذ « فيوليت » و « زره » و « هرتسفيلد » عام ١٩٠٧ م .

وبلى المدخل ثلاث قاعات تغطيها عقود نصف أسطوانية تعرف باسم الإيوان ،
وتنتهى هذه القاعات بصحن مربع يتوسطه حوض ماء وفسقية . وتقع قاعات الخليفة
الخاصة به وبالحریم على جانبي هذا الفناء ، كذلك تتصل به قاعة العرش الكبيرة
فنون الشرق الأوسط

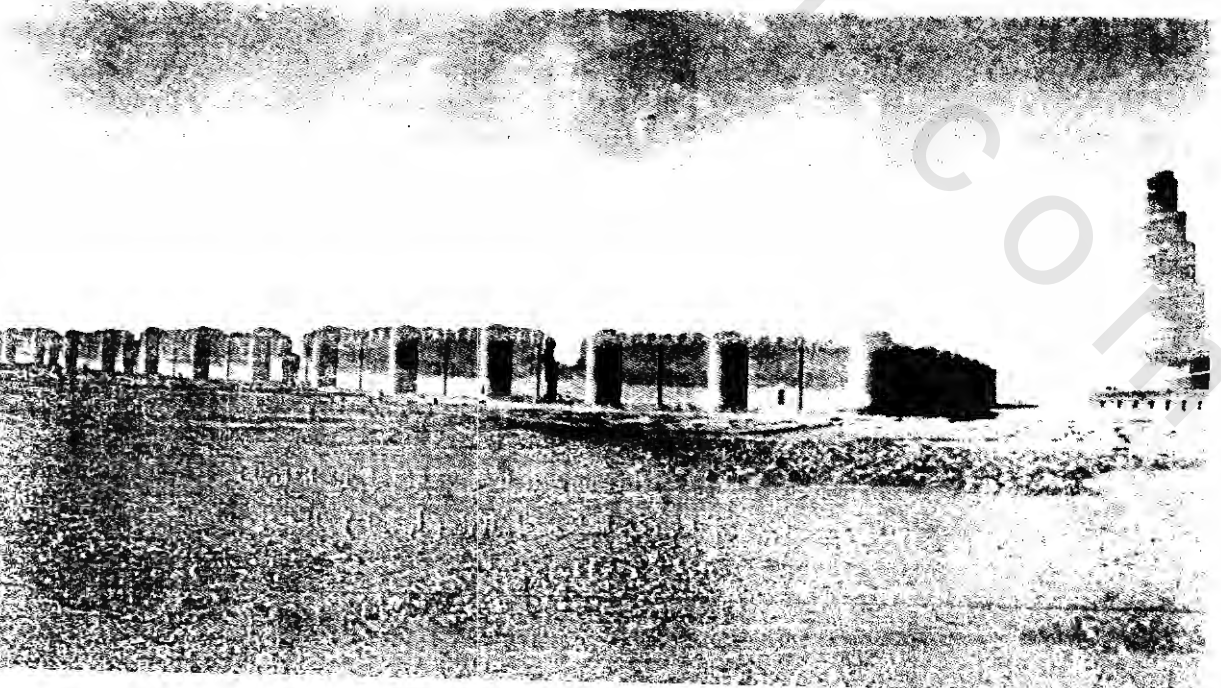


(شكل ١٧)

سور مدينة الرقة (بوابة بغداد)
العصر العباسي في العراق .

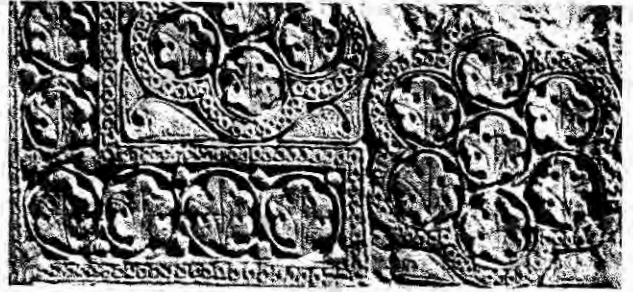
(شكل ١٨ - ب -)

(١) جامع السعراء الكبير الذي شيده
المتوكل عام ٢٣٤ هـ - ٨٤٨ م ،
العراق ، وتظهر في (ب) المئذنة
(الملوية) ، خارج السور .



(شكل ١٩)

قصر الأخيضر بصحراء العيد جنوب
بغداد ، القاعة الكبيرة من الجهة
الشمالية ، العراق .



(شكل ٢٠ - ١ ، ب)

زخارف جصية طراز السمرقند (أعلى)
طراز السمرقند ب (أسفل) وجدت
بقصور السمرقند ، العراق .



المربعة الشكل ، ويغطي هذه القاعة قبة كما تحيط بها قاعات جانبية . ويكسو الجزء الأسفل من جدران القاعات وزرة من الحصن منقوشة بوحداث زخرفية . أما في قاعة العرش فقد استبدلت الزخارف بالحصية بلوحات من الرخام منقوشة بزخارف ذات وحدات مشابهة . ولقد وجدت ببعض قاعاته تصاوير جدارية ملونة تغطي الجدران .

ويلاحظ من دراسة هذا القصر أنه جمع بين العناصر المعمارية التي عرفت في مشيدات إيران والعراق في فترة الحكم الساساني ، كالإيوان الكبير ، والأفنية المكشوفة التي تتوسطها النافورات ، والبهر الكبير المغطى بعقود نصف دائرية . ومن المرجح أن تصميم هذا القصر كان على نمط طراز القصور الساسانية التي وجدت بالمداين ، والتي كان يلحق بها ميدان للعبة الصولجان (البولو) . وكانت هذه اللعبة معروفة في بلاد الفرس ونقلها عنهم العباسيون ضمن ما اقتبسوا منهم .

ومما يؤكد استعانة المعتمض بعمال من أنحاء الإمبراطورية عثور الأستاذ « هرتسفلد » على توقعات هؤلاء العمال باللغات العربية والآرامية (السورية) والإغريقية ^(١) .

ويقع قصر أخضر في صحراء العبيد على نهر الفرات ، ويبعد حوالي ٨٠ كيلومتراً عن الكوفة . ولقد اختلف العلماء في شخصية صاحب هذا القصر ^(٢) ، فنسبه البعض إلى عيسى بن موسى بن عبد الله العباسي الذي كان حاكماً على الكوفة في عهد المنصور ، وفي هذه الحالة يرجع تاريخ تشييده إلى عام ١٦١ هـ - ٧٧٨ م . كما ذكر أنه كان مقراً للقرامطة في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي . ويعد هذا القصر من أهم العمائر المدنية العباسية ، حيث إنه القصر الوحيد الذي عثر عليه بحالة جيدة من بين قصور العباسيين ويرجع ذلك إلى استخدام قطع الحجارة في تشييده (ش ١٩) .

(١) كريزويل . ماقبله ص ٢٦٦ .

(٢) استبعد العلماء نسبة هذا القصر إلى الخلفاء العباسيين لوجوده في الصحراء حيث إنهم لم يفضلوا سكن الصحراء مثل الخلفاء الأمويين .

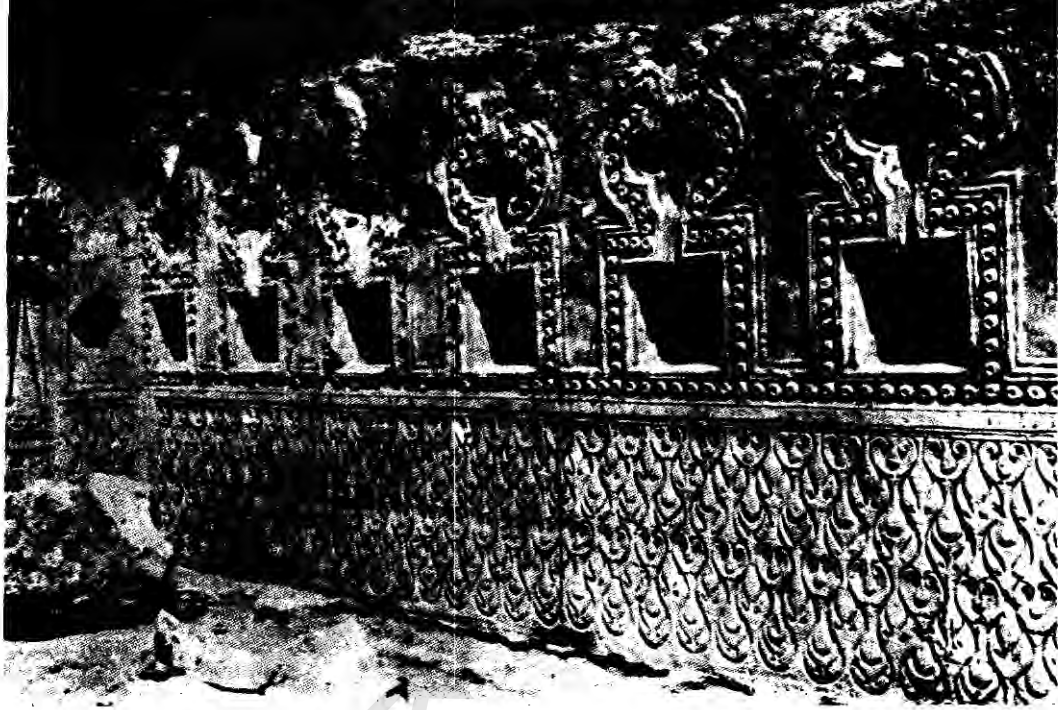
ولقد أقيم هذا القصر على مساحة مستطيلة (١٧٥ × ١٦٩ م) ويعتمد تصميم مبانيه على الحرف الإفرنجي T . ويحيط به سور متين مدعم بأبراج أسطوانية بارزة عن الجدران ، كما يظهر أيضاً بأركانه الأربعة أبراج . ويوجد للقصر أربع بوابات تتوسط الجدران ، ولكن الدخول إليه قصر على مدخل واحد . ويلى مدخل القصر ردهة تذكرنا بشبهتها في قصر المشق الأموي ، كما تذكرنا به أيضاً حنية المسجد الموجودة على يمين المدخل . وتظهر بهذا القصر الأساليب المعمارية المعروفة في عصور الساسانيين كهبو الاحتفالات ، وقاعة الاستقبال والفناء المكشوف الذي تقع عليه مباني الحريم ومباني القصر . وخلافاً لما اتبع في قصر الجوسق ، نلاحظ أن عمارة هذا القصر قد استخدمت فيها قطع الحجارة المخلوطة بالمونة مما ساعد على بقاءه وقد استخدم الآجر في حالتين ، في تغطية العقود ، أو للحصول على تأثير زخرفي في العقود المستديرة والمدببة الصماء الموجودة في الجدران . وتغطي سطح القبوات أيضاً زخارف جصية جميلة .

ويبدو من تخطيط القصور العباسية في العراق ، اقتباس المماريين لكثير من العناصر الهندسية التي عرفت في القصور الفارسية . كما يظهر الأسلوب العراقي القديم في استخدام الآجر في تشييد بعض هذه القصور .

الزخارف المعمارية :

النحت على الحجر :

انتشرت طريقة كسوة الجدران بزخارف جصية بعد انتشار استخدام قوالب الطوب في العما ، ويظهر ذلك في قصور مدينة سمراء وبعض المنازل . وكان الجزء الأسفل يغطي بوزرة من الجص ارتفاعها حوالي ١٠٠ سم ، ولقد وجدت هذه الزخارف في قصرى الجوسق وبلكوارا . ويمكن تقسيم زخارف قصور سمراء من حيث الوحدات الزخرفية إلى ثلاث مجموعات يتضح فيها التطور التدريجي الذي ظهر في أسلوب الزخرفة : المجموعة الأولى وهي التي ظهرت في زخارف مباني الفترة الأولى ، وتتكون عناصرها من تفرعات لأوراق العنب الخمس الشكل ، وكيزان الصنوبر والمراوح النخيلية وأشجار الزهيرات . ولقد وضعت هذه الزخارف في تقسيمات هندسية . وتظهر في هذه الزخارف عناصر أموية كثيرة



(شكل ٢٠ - ج)

زخارف جصية طراز السمراء وجدت
في قصر بلكوارا ، السمراء ، العراق .



(شكل ٢٢)

تاجا عمودين من الحجر (أ) العصر
العباسي المبكر ، زخارفه منقولة عن
الطبيعة ، (ب) الطراز التجريدي
المتطور ، حالياً بمتحف المتروبوليتان
بنيويورك .



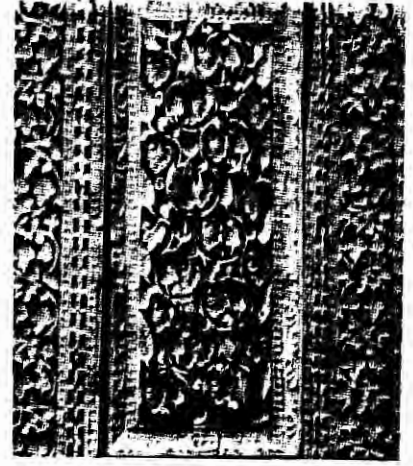
(شكل ٢١)

إب جامع الخاصكي ببغداد ،
عصر العباسي ، القرن ٨٢ - ٨٨ م ،
الياً بمتحف بغداد .



(شكل ٢٣)

لوح من الخشب من تكريت ، العراق
نهاية القرن ٥٢ - ٨ ، حالياً
بمتحف بغداد .



(شكل ٢٤)

باب من الخشب ، يعتقد أنه من
سمراء ، العراق ، القرن ٩ - ٥٣ م
حالياً بمتحف المتروبوليتان بنيويورك ،
في مجموعة « فلنشر » تفضلاً من المتحف



(شكل ٢٥)

تصوير جداري لراقصتين وجد على
جدران الحرم بقصر الجوسق .
سمراء ، القرن ٩ ، ٥٣ م حالياً
بمتحف الفنون التركية والإسلامية ،
إسطنبول .



تشابه زخارف قصر المشتى ، ويسمى هذا الأسلوب القريب من الطبيعة بطراز « سمراء الأول » (ش ١٢٠) . وتتميز زخارف المجموعة الثانية ببعد عناصرها عن محاكاة الطبيعة، وتتكون من أوراق نباتية دائرية وأشكال مختلفة من المراوح النخيلية. ويظهر في هذه الزخارف تغيير في شكل الوحدات قليلة البروز، حيث استخدم فيها النحت المائل بحيث تتقابل حوافها بعضها ببعض في شكل زوايا منفرجة (ش ٢٠ ب) .

أما زخارف المرحلة الثالثة طراز « سمراء الثالث » فيظهر بها تطور أكثر حيث تتحول الوحدات كلها إلى الشكل التجريدي كما نجد بالأرضية عمقاً ظاهراً . ومن أحسن الأمثلة على ذلك نقرش قصر بلكوارا (شكل ٢٠ ح) .

وبينما تظهر أحياناً بين زخارف الفترة الثانية المحورة عناصر طبيعية ، نجد أنها تختفي تماماً في زخارف الفترة الثالثة . وبعد هذا التغيير الأخير ثورة في أسلوب الزخارف الذي كان متبعاً حتى ذلك الوقت في الفن الإسلامي ، ويمكن اعتبار هذه المرحلة ابتكاراً زخرفياً خاصاً بالعهد العباسي . ويظهر التغيير أيضاً في أسلوب حفر الزخارف فبدلاً من الحفر باليد بالسكين، اتبع أسلوب صب الجص في القوالب المزخرفة ثم ضغطها على الحائط، ويسهل هذا عملية تكرار الوحدات على السطح مما يعجل بإنجاز مهمة العامل . ويظهر في أسلوب هذه المرحلة فكرة تغطية السطح تغطية تامة كادت تختفي أرضيته تماماً ، وبعد ذلك قمة نضوج الأسلوب الزخرفي الذي ظهر لأول مرة في الفن الإسلامي، وانتشر بعد ذلك في العالم الإسلامي وكان من أهم دعائم الفن الإسلامي . ولقد كان لأسلوب زخارف سمراء الحصية ، أثر كبير في زخارف العهود الإسلامية التالية ، حيث شاع استخدامها في العراق وإيران في العصر السلجوقي . ويمكن نسبة فكرة استخدام الجص في الزخارف المعمارية إلى الساسانيين الذين زخرفوا قصورهم بزخارف جصية بارزة . كما أن التفرعات النباتية ذات الأوراق الكبيرة يمكن نسبتها إلى الأتراك الرحل الذين هاجروا إلى المنطقة .

استمر تأثير الفن الأموي ظاهراً في بعض البلاد الإسلامية بعد سقوط الدولة الأموية ، ويظهر ذلك في نحت الأحجار ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك محراب جامع الخاصكي الموجود حالياً بمتحف بغداد (ش ٢١) ويرجح بعض العلماء أن الخليفة العباسي المنصور قد نقله من سوريا إلى جامعته الذي شيده في بغداد في أوائل العصر العباسي .

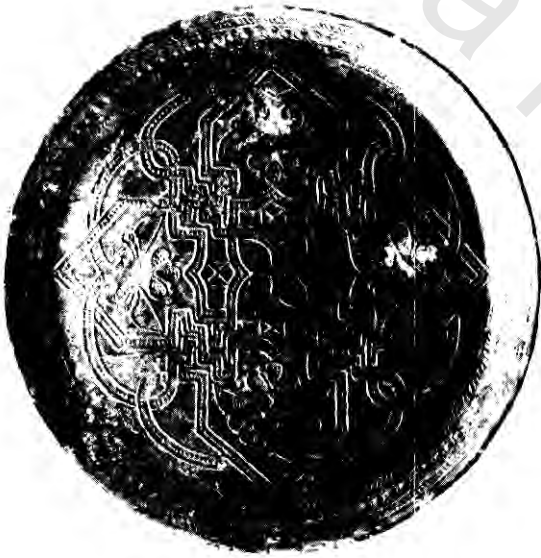
ولقد نحت هذا المحراب من كتلة من الرخام ، ويزخرف أعلاه نقش على هيئة محارة مجوفة تستند على شريط رأسى به زخارف قوامها أوراق العنب وحبائه وورق الأكنتس وقرون الرخاء . كما يوجد به زخرفة على هيئة زهرية . ويوجد على جانبي المحراب نقش لعمودين مزخرفين بخطوط حلزونية يعلوهما تاجان من نبات الأكنتس . وتنشابه وحدات هذا المحراب مع وحدات قصر المشتى مما يرجح أن صناعته ترجع إلى القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي) ، كما يتضح من تصميمه تأثير الفن الإسلامي في صدر الإسلام بالأساليب الفنية القديمة ، وذلك بمقارنته مع رسم محراب (ش د) وجد بمعبد يهودى بمدينة تدمر يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثالث الميلادي .

ويظهر أسلوب تطور زخارف سمراء الحصية في الزخارف المنقوشة على الحجر أيضاً ويتضح ذلك من مقارنة بعض تيجان أعمدة رخامية عثر عليها في مدينة الرقة . حيث نلاحظ في إحداها (ش ٢٢) الأسلوب الأموي الذي يعتمد على تقليد الطبيعة والذي ظهر في أوائل العصر العباسي . في حين ظهر في الثاني (ش ٢٢ ب) زخارف عناصر نباتية تجريدية متعددة بطريقة النحت المائل أو المشطوف . وهذا أسلوب انتقل إلى العراق عن طريق الإيرانيين أو الترك الرحل الذين استوطنوا الدولة العباسية .

النحت على الخشب :

من أحسن أمثلة النحت على الخشب في العصر العباسي الأول قبل ظهور العنصر التركي ، قطعة خشبية عثر عليها في مدينة تكريت الواقعة شمال العراق (ش ٢٣) يرجح العلماء أنها كانت جزءاً من منبر أو باب . وتتألف زخارفها من

(شكل ٢٦)
تصوير لحامل الغزال وجد على أواني
قصر الجوسق بمدينة سمراء ، العراق ،
القرن ٣ - ٩ م .



(شكل ٢٨)
إناء من الخزف به زخارف بارزة
ومغطى بطلاء ذهبي ، العراق ، القرن
٣ - ٩ م ، العراق . وهو حالياً
بمتحف فريزر بواشنطن . تفضلاً من
المتحف .



(شكل ٢٧)
سلطانية من الخزف بها زخارف
نباتية ، العراق ، القرن ٣ - ٩ م .
معهد الفنون بمدينة شيكاغو .



(شكل ٣٠)

إناء من الخزف مزخرف بطلاء معدني
وبه زخارف حيوانية ، العراق ،
القرن ٥٣ - ٩ م متحف اللوفر
باريس .



(شكل ٢٩)

إناء من الخزف مزخرف بطلاء معدني
ذو لونين ، العراق ، القرن ٥٣ -
٩ م ، معهد الفنون بمدينة شيكاغو .



(شكل ٣١)

إناء من الخزف مزخرف بالبريق
المعدني وبه زخارف آدمية ، العراق ،
القرن ٥٣ - ٩ م ، بمتحف
أشموليان ، أكسفورد .

نبات العنب وعناقيد وكيوان الصنوبر التي شاع استخدامها في العصر الأموي ويظهر أسلوب سمراء التجريدي في زخارف بعض الألواح الخشبية (ش ٢٤) التي تظهر بها رسوم لزهيرات مجردة أو لطيور أو حيوانات محورة عن الطبيعة، ويظهر في هذه الألواح الأسلوب الزخرفي بالحديد الذي أدخله العنصر التركي في الفن العباسي في أواخر القرن الثامن الميلادي وهو طريقة الحفر المائل أو المشطوف .

التصوير الجداري :

زخرف الخلفاء العباسيون قصورهم بالتصاوير الجدارية كما كان متبعاً في زخرفة القصور الساسانية . ولقد عثر على نماذج من هذه الصور الحائطية في قصر الجوسق . وكانت هذه الرسوم الحائطية تغطي الجزء الأعلى من جدران قاعات القصر ، ومن أحسنها ما وجد في جناح الحریم . وتضم هذه الرسوم صور راقصات وموسقيات وصائدات وحيوانات وطيور ، ولقد وضعت بعض هذه الوحدات الحية داخل مناطق مستديرة أو مربعة يحيط بها إطار مزخرف بنقط تشبه حبات اللؤلؤ أو أشكال القلوب . كما ظهرت بعض الصور في دائرة تكونت من تفرعات نبات الأكانتاس الذي استخدم في زخارف قبة الصخرة .

ويبدو التأثير الفارسي واضحاً في تصاوير سمراء حيث يظهر أسلوب جديد في فن التصوير يختلف عن الأسلوب الهيلينستي الذي عولجت به صور قصير عمره ، حيث اعتمد الفنان العباسي على تحديد عناصره بلون قائم يملأ بعدها المساحات بالألوان . وتظهر نساء قصر سمراء (ش ٢٥) بوجوه مستديرة ممتلئة وبعيون لوزية ذات حداقات كبيرة ، وأنف كبير مستقيم ، أما الفم فيحده خط مستقيم من أعلى وخط منحني من أسفل . وتتميز النساء بشعر أسود غزير ينسدل على الكتف على هيئة ضفيرتين . ويبدو أن هذا الأسلوب مشتق من أمثلة وجدت في أواسط آسيا ونقلها الأتراك إلى العراق . ويؤكد التأثير التركي صورة حامل الغزال الذي يرتدى زياً تركياً (ش ٢٦)

أما التصوير الذي يزين المخطوطات والكتب التاريخية الذي ذكر المؤرخون وجوده في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري أى التاسع الميلادي ، فلم يعثر

منه حتى الآن على أى نماذج . وأقدم ما عثر عليه من العراق لا يرجع إلا إلى ما بعد القرن الثالث عشر الميلادى فى فترة حكم أتابكة السلاجقة .

الفنون الصغيرة :

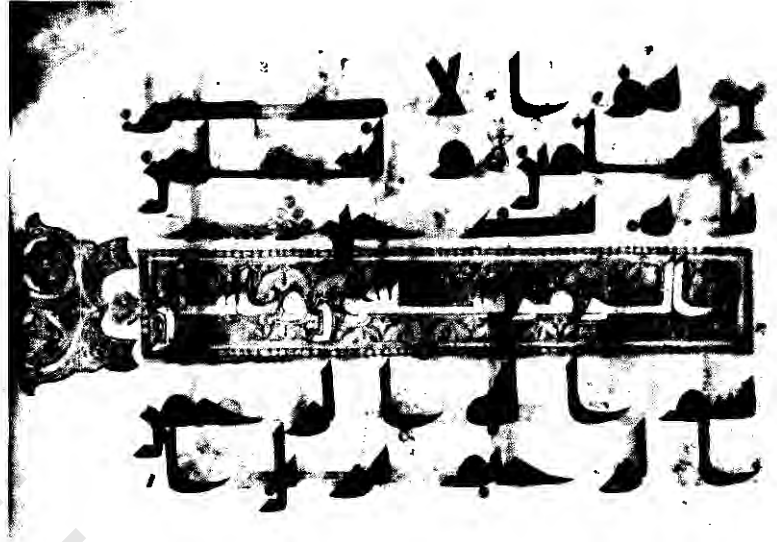
الخزف :

توصل الخزافون المسلمون فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر بعد الميلاد) إلى اكتشاف أساليب جديدة فى صناعة الخزف وزخرفته . وكان ذلك إما بطريقة الحز التى تذكرنا بالحفر على المعادن أو بالضغط على العجينة لتكوين بعض الزخارف البارزة . كذلك استخدمت طريقة رسم الزخارف تحت الطلاء بلون واحد أو بألوان متعددة . ومما ساعد على نشاط الخزافين ، ما استورده الخلفاء العباسيون من الخزف الصينى ذى التعريقات والبقع الملونة الذى كان يصنع فى الصين فى عهد أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٨ م) . ولقد أجاد المسلمون تقليد هذا النوع من الخزف لدرجة يصعب أحياناً التمييز لأول وهلة بين ما صُنع فى البلاد الإسلامية وما استورد إليها . ولقد عثر على آثار من ذلك النوع فى سمراء والمدائن ونيشابور .

ومن الأمثلة الأولى التى تأثرت بالخزف الصينى مجموعة من الأواني تزينها زخارف هندسية أو نباتية على الأرضية البيضاء . ومن هذه المجموعة سلطانية عثر عليها فى العراق مغطاة بطلاء شفاف رصاصى تزينها زخارف باللون الأزرق لأشكال نباتية (ش ٢٧) . ولقد عثر فى سمراء على كمية كبيرة من هذا النوع من الخزف ، كما انتشر فى مراكز صناعة الخزف الأخرى ووجدت منه أمثلة فى إيران والفسطاط .

وينسب إلى أوائل العصر العباسى مجموعة من الأواني الخزفية زخرفت بطريقة الخطوط المحفورة أو الزخارف البارزة . وقوام هذه الزخارف أشكال هندسية ونباتية طبيعية وبجردة بعيدة عن الطبيعة ، وقد تنتهى هذه الزخارف الهندسية بتفريعات من المراوح النخيلية أو كتابات زخرفية (ش ٢٨) تتشابه مع ما وجد فى الخزف الصينى . ويغطى الإناء أحياناً بطلاء أصفر يشبه لمعان الأواني المعدنية .

وكان الابتكار العظيم الذى اهتم به إليه الخزافون المسلمون فى العراق هو لكساب الإناء الخزفى بريقاً معدنياً يختلف لونه من الأحمر النحاسى والأصفر



(شكل ٣٢)

صفحة من مصحف مكتوبة بالخط
الكوفي ، العراق ٨٣ - ٩٠ م ، حالياً
متحف المتروبوليتان ، نيويورك .



(شكل ٣٣)

لغة نسيج من الحرير من صناعة
نداد ، القرن ١٠ - ١١ م ، حالياً
كنيسة بمدينة ليون بألمانيا .



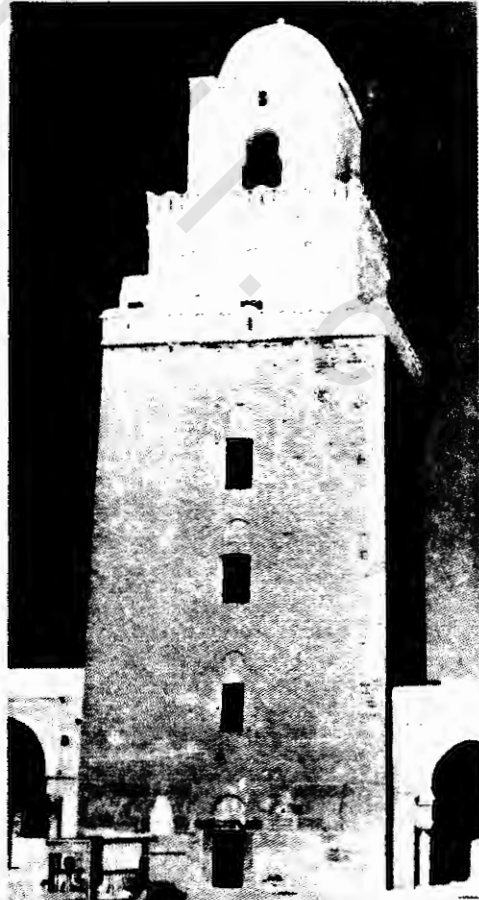
(شكل ٣٤)

جامع سيدى عقبة ، القيروان بتونس
شمال أفريقيا ، القرن ٨٣ - ٩ م .



(شكل ٣٥)

مئذنة جامع سيدى عقبة ، القيروان
بتونس .



(شكل ٣٦)

حشوة خشبية من منبر جامع القيروان
بتونس .

الضارب إلى الخضرة . وكان هذا البريق المعدني يكسب السطح لمعاناً معدنياً يشابه لمعان الأواني المعدنية ، وبذلك تمكنوا من الاستغناء عن الأواني الذهبية والفضية التي كان الفقهاء المسلمون يستنكرون على الحكام استعمالها لدلالاتها على الترف والإسراف^(١) . ولم يكن هذا النوع من الخزف معروفاً من قبل في البلاد الإسلامية .

ولقد اقتصرت الزخرفة بالبريق المعدني على المنتجات الثمينة من الخزف التي تصنع للعظماء وكبار رجال الحكم . ويتطلب صناعة هذا النوع من الخزف إحراق الإناء أول مرة بعد تجفيفه وطلائه بالدهان أو المينا ، ثم ترسم بعد ذلك الزخارف فوق الدهان بأوكاسيد بعض المعادن ، وتحرق بعد ذلك في فرن ذي حرارة منخفضة ، فيظهر بها بعد حرقها للمرة الثانية بريق معدني ذهبي اللون .

ولقد انتشر هذا الابتكار الفني في أنحاء العالم الإسلامي في العصر العباسي ، حيث عثر على نماذج من هذا الخزف المعدني في العراق وإيران ومصر وشمال أفريقيا والأندلس وبلاد الشام . واختلف العلماء في القطر الذي ابتكر هذا الأسلوب ، ويميل كثير من العلماء في الوقت الحاضر إلى نسبة هذا الابتكار الإسلامي إلى العراق . ويعتقدون أن مراكز صناعته اقتصرت في أوائل العصر العباسي على بغداد وسمرقند ، وأن النماذج التي ظهرت من هذا النوع في بقية البلاد الإسلامية ترجع إلى فترة بعد ذلك .

وإلى جانب ابتكار البريق المعدني اكتشف الخزافون أساليب جديدة في طريقة الزخرفة بالبريق المعدني . وذلك برسم العناصر الزخرفية بألوان متعددة من الطلاء المعدني الأصفر والزيتوني والبني المحمر على الأرضية البيضاء المغطاة بالطلاء الشفاف . ويظهر ذلك في إناء به زخارف بالطلاء المعدني المتعدد الألوان (ش ٢٩) . ولقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً في البلاطات الخزفية التي تكسو الجدران ووجد منها أمثلة في بعض قصور السمرقند وفي محراب جامع القيروان . ولم تقتصر زخارف الخزف المعدني في العراق على رسوم سمرقند التجريدية والنباتية ، بل ظهرت به زخارف حيوانية وآدمية منذ أواخر القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي (ش ٣٠) ، كما اقتصرت ألوان الطلاء المعدني على لون واحد .

(١) تحريم استخدام الأواني الذهبية والفضية في الشرب، انظر صحيح البخاري «باب التحريم

ولقد انتقلت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى من العراق إلى إيران فى العصر العباسى الأول وظهرت نماذج منه فى مدينتى سوسة والرى . ويعد الخزف ذو البريق المعدنى أقدم أنواع الخزف الإسلامى الذى ظهرت به زخارف آدمية وحيوانية . ويتضح من الزخارف الموجودة على طبق مزخرف بالبريق المعدنى بلون واحد (ش ٣١) تأثر الفنان بالوحدات الساسانية .

فنون الكتاب :

الخط والتذهيب والتصوير والتجليد :

انتعش فن صناعة الكتاب فى العصور الإسلامية ، وكان الباعث على ذلك رغبة الحكام المسلمين فى عمل مصاحف جميلة لهم ، فاستعانوا بأحسن الخطاطين لكتابتها وأمهر المذهبيين لزخرفتها . كما وضحت بعض المخطوطات الشهيرة بالصور والرسوم الملونة . وكان نتيجة نهضة فن الكتاب أن تطورت صناعة التجليد عند المسلمين وظهر لها شكل مميز منذ القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) . وكان الخط العربى يكتب بأسلوبين : الأسلوب الأول وهو الخط الكوفى نسبة إلى مدينة الكوفة بالعراق ، ويتميز بحروف مستقيمة ذات زوايا حادة . والأسلوب الثانى وهو الخط النسخى وحروفه لينة مقوسة . ولقد استخدم المسلمون هذين النوعين فى كتاباتهم منذ القرن السابع الميلادى ، واستخدم الخط الكوفى فى كتابة القرآن حتى القرن الحادى عشر الميلادى ثم حل محله تدريجياً الخط النسخى .

وتنسب بداية فن زخرفة المصاحف وتحلية صفحاتها باللون الذهبى إلى العصر العباسى . وكانت الصفحات الأولى والأخيرة وعناوين الصور القرآنية تذهب بزخارف جميلة ، كما تظهر الزخارف أحياناً فى علامات الهامش والنصوص الكتابية (ش ٣٢) . وتدل زخارف المصاحف التى ترجع إلى القرن التاسع الميلادى فى العصر العباسى ، على أن عناصرها ما زالت متأثرة بأساليب من الفن الساسانى كالمراوح النخيلية المجنحة . كما يعتقد أن الحكام العباسيين استعانوا بفنانين من مسيحيى سوريا فى عملية تذهيب الكتابة . وكانت صفحات الكتاب تحفظ فى أول الأمر بين لرحين من الخشب المزين بزخارف هندسية مطعمة بالعاج ثم استبدل بعد ذلك بالجلد .

المنسوجات :

نشطت دور النسيج في أنحاء الدولة العباسية ، في إنتاج أفخر المنسوجات التي يطلبها الخلفاء . فأمدت مصر الدولة العباسية بالمنسوجات الكتانية المزخرفة بالخيوط الحريرية ، بينما اقتصرت إيران بأفخر المنسوجات الحريرية . ويتضح تأثير الفن الساساني على فنان تلك الفترة من قطعة نسيج حريرية من صناعة بغداد مزخرفة بعناصر حيوانية (ش ٣٣) .

شمال أفريقيا :

امتد تأثير الفن العباسي إلى خارج حدود العراق ويظهر ذلك في شمال أفريقيا وفي مصر وإيران . فنجد أن الأسلوب العباسي انتقل إلى شمال أفريقيا في فترة حكم الأغالبة الذين يقيمون في القيروان وتونس . ويظهر ذلك في جامع القيروان (ش ٣٤) الذي أعيد تشييده في عهد « زياد الله » ثالث الحكام الأغالبة (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) . ويتميز هذا الجامع بمئذنة على هيئة برج قاعدته مربعة شيدت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عندما أمر بتوسيع المسجد عام ١٠٥ هـ - ٧٢٣ م^(١) ، وتعد هذه المئذنة (ش ٣٥) أقدم المآذن في تاريخ العمارة الإسلامية . ولقد انتشر هذا النوع من المآذن المربعة التي عرفت باسم الصومعة في مساجد بلاد المغرب والعراق ، وبما يؤيد انتقال العناصر العباسية إلى شمال أفريقيا ، القصر الذي شيده إبراهيم ابن الأغلب عام ١٨٥ هـ - ٨٠١ م على النمط العباسي في عاصمته الجديدة التي أطلق عليها اسم العباسية .

كذلك ظهرت في العصر العباسي الأولى في القرنين الثامن والتاسع الميلادي مبان محصنة في شمال أفريقيا على طول الساحل كانت تستخدم كتحصينات ضد هجوم الأعداء . ومن أشهر هذه المباني رباط صوصه الذي شيده « إبراهيم ابن الأغلب » بمدينة صوصة في تونس عام ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م ، وكان يلحق بهذا المبنى منارة اسطوانية تستخدم كمئذنة وإرسال الإشارات . ولقد استخدمت هذه

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٥ . لدراسة هذه المئذنة انظر أيضاً . أحمد فكري المسجد الجامع بالقيروان ، زكي محمد حسن تطور المآذن

المباني فيما بعد لإيواء الجنود المسلمين ، ثم نشأت بها حركة المرابطين في المغرب . ولقد ظهر تأثير الفن العباسي في شمال أفريقيا في الفنون التطبيقية أيضاً ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك منبر جامع القيروان الذي يعد أول منبر عرف في الإسلام . يتكون هذا المنبر من صفوف من المستطيلات الخشبية التي تزينها حشوات خشبية مفرغة ، وتتألف زخارف هذه الحشوات من تفريعات ورق العنب وزخارف نباتية مجردة . كما توجد به زخارف هندسية متشابكة (ش ٣٦) . وتوضح زخارف هذا المنبر التطور الذي مرت به عناصر الفن الإسلامي من العصر الأموي إلى العصر العباسي . حيث تظهر به زخارف أموية ككيزان الصنوبر وتفريعات العنب وأوراقه التي عرفت في قصر المشتى ، كما توجد به زخارف نباتية بعيدة عن الطبيعة تمثل أسلوب الزخارف المجردة التي ابتكرت في العصر العباسي ، والتي ظهرت نماذج منها في زخارف السمرات الخشبية في المرحلتين الثانية والثالثة . وقد امتد طراز العصر العباسي الأول إلى شرق تركيا ، ويظهر هذا التأثير في نقوش حجرية وجدت في كنيسة الصليب المقدس التي شيدها الملك الأرمني « جاجيك » في الفترة ٩١٥ - ٩٢١ م بالقرب من بحيرة فان . فنجد بين الزخارف المنقوشة شخصاً جالساً بوضع المواجهة بين حارسين (ش ٣٧) ويعتقد بعض الباحثين أن هذا الشخص ربما يرمز إلى الخليفة « المعتذر » الذي يظهر شكله منقوشاً في وضع جالس على عملة ذهبية (ش ٣٨) ترجع إلى النصف الأول من القرن العاشر الميلادي . وهنا نلاحظ بدء ظهور الزخارف الآدمية على العملات في العصر العباسي .



(شكل ٣٨) عملة ذهبية بها صورة الخليفة المعتذر ، العصر العباسي بمتحف الدولة ببرلين



(شكل ٣٧) تحت بازو وجد على كنيسة بالقرب من بحيرة فان بأرمينيا ، القرن ١٠ هـ - ١٠ م

الفصل الثاني

الولايات المحلية خارج العراق مصر

الطولونيون (٢٥٤هـ - ٨٦٨م) (٢٩٣هـ - ٩٠٥م)

علمنا مما سبق أن بعض البلاد التابعة للدولة العباسية استقل ولاتها بها إثر ضعف الخلافة العباسية . ولكن بالرغم من استقلال هذه الدول (الطولونية ، السمانية ، البويهية ، الغزنوية) سياسياً عن الخلافة العباسية ، يلاحظ أن الطراز العباسي ظل سائداً في هذه الممالك بالإضافة إلى طرزهم المحلية . ولقد انتقل الطراز العباسي إلى مصر على يد أحمد بن طولون .

ولد أحمد بن طولون في بغداد ونشأ في مدينة سمراء ، وجاء إلى مصر عام ٢٥٤ هـ ٨٦٨ م في عهد المعتمد - آخر الخلفاء العباسيين الذين أقاموا بسمراء - كوال من قبل الخليفة . ولكنه انتهز فرصة ضعف الخلافة العباسية فاستقل بحكم مصر له ولذريته بعد ذلك ، وامتد نفوذه إلى الشام في عام ٢٦٥ هـ - ٨٧٧ م . واستمر حكم الدولة الطولونية حتى عام ٢٩٣ هـ - ٩٠٥ م حين تمكن الإخشيديون من الاستيلاء على الحكم^(١) . وبرغم استقلال أحمد بن طولون السياسي إلا أنه كان يدين بالطاعة الدينية للخليفة العباسي .

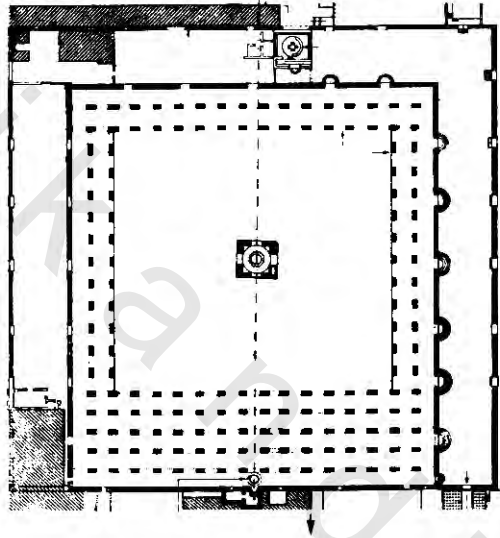
العمارة :

شيد أحمد بن طولون ضاحية جديدة لجنوده بجوار مدينة الفسطاط في عام ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م أسماها القطائع وشيد بها قصراً وميداناً للعبة الصوبلحان^(٢) التي نقل فكرتها عن العباسيين ، كما أقام لجنوده مساكن بها . ولما ضاق جامع عمرو بالمسلمين الذين دخلوا في الدين الجديد شيد أحمد بن طولون جامعاً جديداً في الفترة (٢٦٣ - ٢٦٥ هـ) (٨٧٦ - ٨٧٩ م) يعتبر من أجمل المساجد الإسلامية .

(١) تمكن محمد بن طنج الأخشيدى من تأسيس دولة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية استمر حكمها في الفترة (٩٣٥ - ٩٦٩م) (٣٢٣ - ٣٥٨هـ) مع استمرار ولائها للدين للدولة العباسية .
(٢) المقرئى ، كتاب الخطط والآثار ، جزء أول ص ٣١٣

عمارة المساجد :

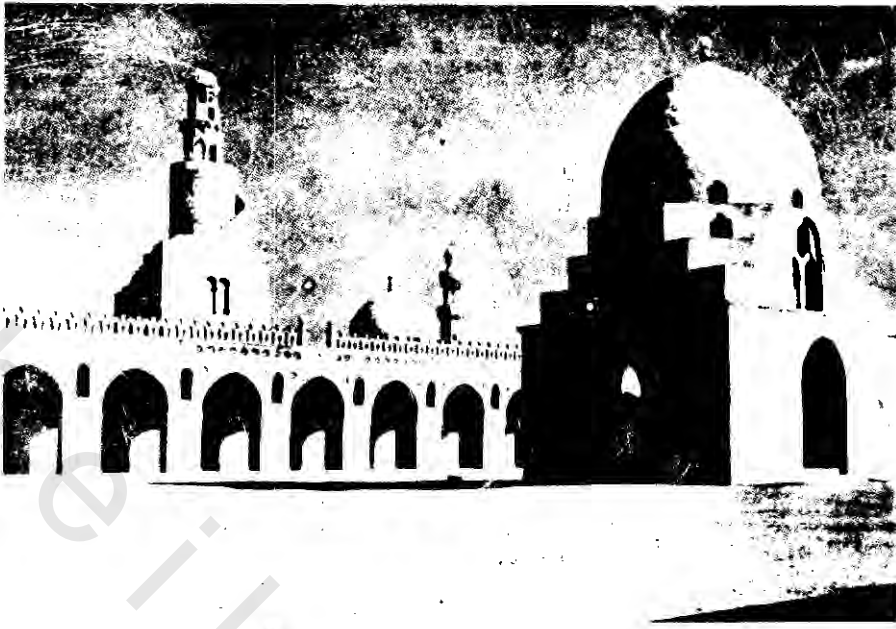
شيد مسجد بن طولون على مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مربع مكشوف (تصميم ز) ويحيط بهذا الصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة ويتكون من خمس بلاطات ، على حين تتكون الأروقة الأخرى من بلاطين . وترتكز عقود



ز - تصميم جامع بن طولون بالقاهرة

هذه الأروقة المدببة الشكل على دعائم ضخمة من الآجر ، ويوجد بأركان الدعائم الأربع أعمدة مبنية بالآجر أيضاً ^(١) . وكان الغرض من وجودها زخرفياً فقط حيث يقع الثقل كله على الدعائم . ويخفف هذا الثقل فتحات ذات عقود مدببة تعلو الدعائم (ش ٣٩) ويلتف حول الفتحات والعقود أشرطة من الزخارف الحصية المنقوشة بزخارف ذات عناصر هندسية ونباتية . ولقد استخدم الآجر فقط في عمارة هذا الجامع . ولا توجد بسور الجامع الدعائم نصف الدائرية الموجودة بسور جامع سمراء الكبير وإنما تقتصر على حنايا

(١) لا تظهر الأعمدة في ذلك الجامع إلا في القبلة فقط ، فنجده عمودين . وسبب ذلك أن أحمد ابن طولون رفض الاستعانة بأعمدة من الكنائس . المقرئ من كتاب المواعظ والاعتبار . ص ٢٦٤ - ٢٦٥



(شكل ٣٩)

جامع ابن طولون ، الفناء الداخلي
وواجهة الإيوان الغربي ، والمنطقة ،
القرن ١٠ هـ - ١١ م ، القاهرة



(شكل ٤٠)

منطقة جامع ابن طولون ، لاحظ وجه
الشباب مع منطقة السراة (١٨ ب)



(شكل ٤١)

زخارف جصية بجامع ابن طولون .

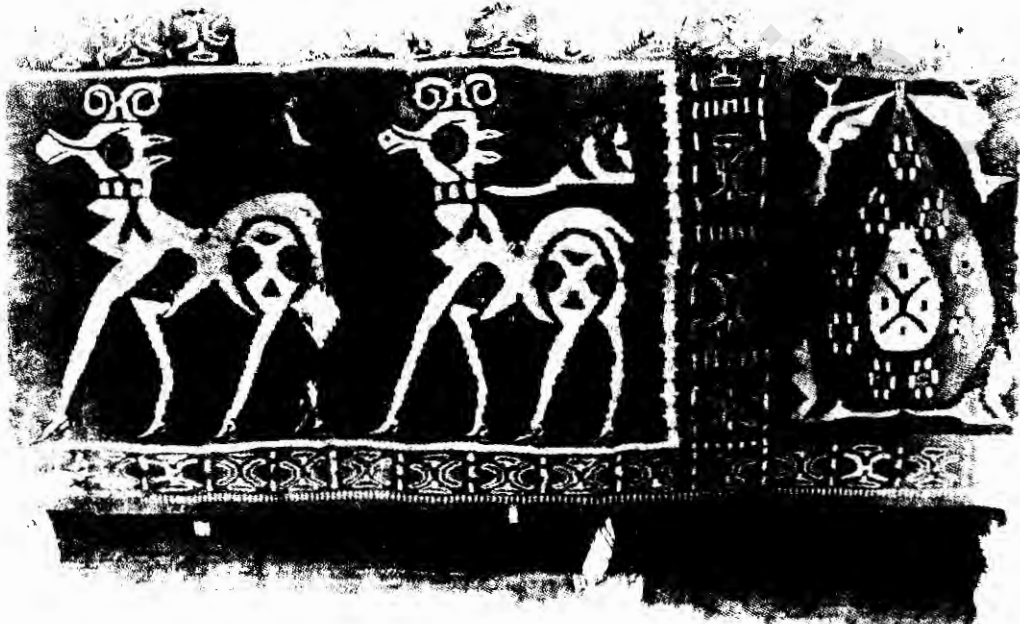


(شكل ٤٢)

لوح من الخشب به زخارف حية مجردة ،
الطراز العباسي في مصر ، القرن
٨٣ - ٩ م ، حالياً بمتحف اللوفر

(شكل ٤٣)

قطعة نسج من مصر الطوليوني في
مصر ، القرن ٨٣ - ٩ م ، متحف
الآثار الإسلامية ، القاهرة .



مستديرة بالواجهة القرية من المدخل . ويحيط بالجامع ثلاثة أروقة خارجية أضيفت لتوسيع الجامع بعد ازدياد عدد المصلين وتعرف بالزيادات ، وهي تتشابه مع زيادات نجامعى سمراء الكبير وأبى دلف بالعراق . وتقع مثذنة الجامع خارج السور الخارجى فى الزيادة الشمالية الغربية . وتصميم هذه المثذنة يعد صورة مكررة من مثذنة جامع سمراء الملوية ، حيث تتكون من قاعدة مربعة الشكل يعلوها جزء اسطوانى (ش ٤٠) . ويلتف حولها من الخارج درج يوصل إلى المنطقة العلوية ، كما ينتهى الجسم الاسطوانى بشكل مشمن من فوقه جسم آخر مغطى بقبة . ويرجع أن أحمد بن طولون قد استعان بمهندس من العراق لتشييد جامعهم حيث ظهرت فيه أساليب معمارية جديدة لم تكن معروفة من قبل فى مصر ، فنلاحظ مثلا استخدام العقد المدبب على نطاق واسع ، كما استخدم الآجر بدلا من الحجارة فى تشييد الدعامات ، كذلك كسيت الجدران بطبقة من الجص المزخرف . ونلاحظ أن زخارف تيجان الأعمدة المتصلة بالجدران والأشرطة الحصية منقولة عن الفن العباسى بالعراق .

عمارة القصور :

لم يتمكن الباحثون حتى الآن من العثور على آثار قصر الميدان الذى شيده « أحمد بن طولون » فى مدينته القطائع ، ومن المرجح أن بعض العناصر العراقية التى وجدت فى قصور سمراء قد انتقلت إلى مصر ونفذت فى عمائر القطائع . ويؤيد ذلك ما كشفت عنه الحفائر فى عام ١٩٣٢ شمال مدينة الفسطاط ، حيث عثر على لوحات جصية مزخرفة فى منزل من العصر الطولونى ، وتتشابه هذه الزخارف مع زخارف سمراء . كما يؤيد فكرة الاقتباس عمارة جامع بن طولون المنقولة عن جامع سمراء .

الزخارف المعمارية :

الحفر على الجص :

انتقل أسلوب تزيين الجدران بالزخارف الجصية من العراق إلى مصر عن طريق الحكم الطولونى . ولم تكن هذه الطريقة معروفة بها من قبل وظهرت منها أمثلة فى

جامع بن طولون في بطون العقود وحولها وحول النوافذ . ويلاحظ أن عناصر هذه الزخارف تتشابه مع ما هو موجود في قصر الجوسق الخائفي بمدينة سمراء ، إذ نرى أسلوب زخارف سمراء من المجموعتين الثانية والثالثة في هذا الجامع . ويمكن نسبة هذه الزخارف إلى الطراز الثاني والثالث (ش ٤١) ، كما وجدت نماذج من أسلوب سمراء الثالث في منزل من العهد الطولوني وعلى بطون العقود بالدير السرياني بوادي النطرون التي يمكن إرجاعها إلى القرن العاشر الميلادي .

ومن النماذج الجميلة للزخارف الحصية محراب بالجامع الذي ترجع صناعته إلى فترة بناء الجامع وتظهر به تعريقات نباتية وشريط من الكتابة الكوفية .

الفنون الصغيرة :

الحفر على الخشب :

كانت صناعة الأخشاب المنقوشة مزدهرة في مصر منذ قديم الزمان ، واشتهر الأقباط بإتقان صناعتها ، ولقد استمر ازدهار هذه الصناعة في العصور الإسلامية ، ويشهد على ذلك ما يوجد بالمتحف الإسلامي بالقاهرة من الأخشاب الطولونية المنقوشة التي تتكون من أبواب وألواح وأفاريز . ويظهر التطور العباسي واضحاً في زخارف هذه الأخشاب حيث تنسب إلى أوائل العهد الطولوني الألواح التي تشمل على العناصر الطبيعية كالمازوح النخيلية وتفرعات أوراق العنب وعناقيده . أما الألواح الخشبية الموجودة في باطن أعتاب مسجد ابن طولون فيظهر بها أسلوب الطراز الثالث للزخارف سمراء ، وتتميز هذه الزخارف بأنها محفورة حفرًا مائلا أو مشطوفاً ، وذلك ما تميز به أسلوب سمراء . كما يوجد بأعلى جدار المسجد إفريز خشبي مسجل عليه كتابات بخط كوفي بارز . ويتضح أسلوب سمراء التجريدي في لوح من الخشب عثر عليه بمصر (ش ٤٢) مزخرف بزخارف حية مجردة^(١) .

(١) تذكر المراجع التاريخية أن الأمير الطولوني خسارويه كان يحتفظ في قصره بتمائيل خشبية له ولحوارية - المقریزی - الخطط والآثار ج ٢ ص ٣١٦ Arnold. T. The painting in Islam . Oxford 1928 p. 241.

الخزف :

كانت صناعة الخزف من أهم الفنون الصغيرة التي برع المصريون فيها في العصور الإسلامية الأولى . ولقد عثر على بعض قطع من الخزف في أطلال مدينة الفسطاط أمكن إرجاعها إلى العصر الطولوني . وتدل دراسة هذه الكسر الخزفية على أن أساليب الصناعة في ذلك العصر كانت تقليدًا للنماذج العراقية ذات الزخارف البارزة التي وجدت في العراق في أواخر القرن الثامن الميلادي ، على أن المصريين سرعان ما تميزت شخصيتهم في زخارف هذه الأواني .

كما أن مصر وصلت في أواخر القرن التاسع إلى إنتاج الأواني الخزفية ذات البريق المعدني ، مما دعا بعض العلماء إلى القول بأن ابتكار البريق المعدني ينسب إلى مصر وليس للعراق .

النسيج :

كانت صناعة المنسوجات مزدهرة في مصر قبل الإسلام على يد الأقباط المهرة . وكانت هذه المنسوجات كتانية مزخرفة بأشرطة مزينة بوحدات زخرفية ملونة بخيوط الصوف . ولقد زاد الاهتمام بصناعة المنسوجات الفاخرة في العصرين الأموي والعباسي بعد انتهاء فترة التقشف والزهد التي سادت الجهود الإسلامية الأولى . وكان هذا الاهتمام واضحاً في فترة حكم العباسيين ، حيث استخدم الحكام مصانع النسيج الحكومية الموجودة في مصر في إنتاج أفخر المنسوجات ، وأتت عرفت هذه المصانع باسم دور الطراز . وأمدت الدولة الطولونية الحكام في بغداد وسائر البلاد الإسلامية بالمنسوجات الكتانية والحريرية لإهدائها كخلع إلى كبار رجال الحكم . وكان اسم الخليفة وألقابه تنسج أو تطرز على شريط النسيج ، بالإضافة إلى أشرطة تزخرف برسوم آدمية أو حيوانية ^(١) أو نباتية (ش ٤٣) . ويظهر نوع من التحوير في هذه العناصر الحية وفقاً للتقاليد القبطية التي كانت متبعة لدى أقباط مصر .

ولقد عثر في سمراء على قطعة نسيج كتانية تدل الكتابة الموجودة عليها على أنها صنعت بمدينة تينس بمصر في القرن التاسع الميلادي . كما عثر على قطع كثيرة

(١) انظر مقالة د. محمد مصطفى في مجلة السياحة العدد الثالث عام ١٩٥٤

من صنع مصر عليها أسماء الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمعتمد والمقتدر وكانت بعض هذه القطع تحمل اسم الخليفة العباسي إلى جانب أسماء الحكام الطولانيين .

إيران وخراسان

(١) للدولة البويهية (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ) (٩٣٢ - ١٠٥٥ م)

تمكنت الأسرة البويهية التي كانت تحكم في غرب إيران جنوبي بحر قزوين من الاستقلال سياسياً عن السلطة المركزية في بغداد وذلك في القرن التاسع الميلادي أي أواخر القرن الثالث الهجري . وتمكنوا في النصف الأول من القرن العاشر من ضم أجزاء من غرب وجنوب إيران إلى مملكتهم . واستمروا في تقدمهم غرباً حتى وصلوا بغداد في حوالي عام ٩٤٥ م ، وأجبروا الخليفة العباسي على التخلي لهم عن بعض أجزاء من العراق . بعد أن صاروا الحكام الفعليين للدولة العباسية . وبالرغم من أن مذهبهم كان شيعياً إلا أنهم كانوا يدينون للخليفة العباسي السني بالزعامة الدينية والروحية . ولقد تمكن السلاجقة من طردهم من بغداد بعد ذلك .

ازدهرت الحياة الثقافية في عصر البويهيين وظهرت في مراكز حكمهم في إيران والعراق حضارات وثقافات ذات طابع إيراني خاص .

العمارة :

كان تصميم المسجد في إيران في العهود الإسلامية الأولى يتبع ثلاثة طرز : الأول مسجد مربع مقنول تغطيه قبة . مستمد من معابد النار الساسانية . والثاني المسجد ذو الإيوان المقبب المفتوح المستمد من القصور الساسانية . والثالث وهو الطراز العربي التقليدي الذي يتكون من صحن مكشوف تحيط به العقود من جهاته الأربع . ولقد ازدهرت هذه الطرز الثلاثة في مساجد القرن التاسع الميلادي ، وظهرت نتائج هذا الامتزاج في عصر البويهيين .

شيد في عصر البويهيين مساجد ظهر بها التأثير بالأسلوب العباسي . وأقدم المساجد الذي لا يزال قائماً في إيران هو مسجد مدينة نايين التي تقع بالقرب من فنون الشرق الأوسط



(شكل ٤٤)

زخارف جصية من جامع مدينة فايين
بإيران ، العصر البويهي ، منتصف
القرن ١٠ هـ - ١٠ م .

(شكل ٤٥)

طبق فضي به زخارف حيّة ،
البويهي ، إيران ، القرن ١٠ هـ -
متحف مدينة طهران ، إيران .

(شكل ٤٦)

أبريق من الذهب تظهر به زخارف
على هيئة حيوانات مجنحة بروس آد ،
العصر البويهي في إيران والعراق
القرن ١٠ هـ - ١٠ م ، متحف
واشنطن .





(شكل ٤٨)

قطعة نسيج تظهر بها وحدة مستند
من أساطير بلاد النهرين القديمة وهم
شخصية البطل جليجامش القرن ١٤ هـ - ١٠ م ،
حالياً بمتحف اللوفر



(شكل ٤٧)

طبق من الخزف (جيري) وتظهر
به زخارف مستمدة من الشاهنامه ،
العصر الساساني - مقاطعة جازوس ،
إيران ، القرن ٤ أو ٥ هـ - ١٠ م ،
حالياً بمتحف المتروبوليتان نيويورك



(شكل ٤٩)

ضريح أحمد الباني بإقليم بخارا
الدولة السامانية بإيران ، ٢٩٥
م ٩٠٧

مدينة يزد . ولقد شيد هذا الجامع في منتصف القرن الرابع الهجري أى العاشر الميلادى ، ويتكون من صحن مربع تحيط به أربعة أروقة . ويتوسط كل ضلع من أضلاع المربع عقد كبير ، يمكن اعتباره بدء ظهور فكرة الإيوان الذى انتشر بعد ذلك فى عمارة الجامع بإيران منذ العصر الساجوقى . وسقف هذا الجامع ليس خشبياً مسطحاً بل نجده مكوناً من قباب الآجر . ولقد تغير شكل الجامع من الإضافات التى أدخلت عليه بعد ذلك مما أخرجه عن تصميمه الأصيل .

وترجع أهمية هذا الجامع إلى الزخارف الحصية الجمية التى تشبه زخارف السمرام والمسجد الطولونى ، وتعد أحسن نماذج للأسلوب العباسى حيث تظهر به زخارف من ورق العنب (ش ٤٤) وزخارف من المراوح النخيلية وأنصافها . ويظهر فى زخارف هذا المسجد الاتجاه الحديد نحو المبالغة فى تغطية المسطحات بالزخارف والعناصر الزخرفية المزدهمة . وتذكرنا بعض هذه الزخارف بالزخارف الحصية الموجودة فى دير السريان بمصر .

الفنون الصغيرة :

المعادن :

أتقن الإيرانيون صناعة المعادن فى العصر الساسانى قبل الإسلام ، وورث الفنانون المسلمون هذه الأساليب فى فجر الإسلام . واستمرت هذه التقاليد الساسانية متبعة فى صناعة الأواني المعدنية فى عصر البويهيين سواء فى شكلها العام أو فى الزخارف المنقوشة عليها . وينسب إلى ذلك العصر عدة مديات ذهبية منقوشة بزخارف تصور رؤوس أمراءهم^(١) .

ويظهر تأثير التقاليد الساسانية فى مجموعة من الأواني الفضية التى تستخدم للمائدة ، وصنعت لأحد كبراء إقليم أذربيجان فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويتضح من الموضوعات الزخرفية المنقوشة على أحد هذه الأطباق (ش ٤٥) تأثرها بالزخارف المنقوشة على الأطباق الفضية الساسانية ، مما دعا

(١) يوجد بالمتحف البريطانى مدالية خاصة بالأمير عز الدولة نقشت أحد وجهيها صورة الأمير جالسا يحف به شخصان .. وبالجبهة الأخرى نقش يصور عازفة .

بعض العلماء إلى نسبتها إلى العصر الساساني . إلا أن أسلوب حفر هذه الزخارف الذي يظهر به عناية في بعض التفاصيل الدقيقة والمختلفة عن الأسلوب الساساني أثبت صحة نسبتها إلى الحكام البويهيين . ويمكن اعتبار هذه التحف المعدنية حلقة الاتصال بين الطراز الساساني والطراز الإسلامي الذي ظهر في إيران .

ومن الأواني المعدنية التي يتضح فيها ميل الفنان إلى الأساليب الساسانية، إبريق من الذهب صنع للأمير « بختيار بن معز الدولة » ، أحد الحكام البويهيين الذين حكموا في العراق من ٣٥٧ - ٣٦٧ هـ (٩٦٧ - ٩٧٧ م) (ش ٤٦) . وتظهر بهذا الإناء عناصر زخرفية عرفت في إيران قبل الإسلام مثل الحيوانات المجنحة برؤوس آدمية الموجودة داخل الجحامات البيضاوية . وذلك بالإضافة إلى الزخارف النباتية وشرط الكتابة الكوفية المنقوش على فوهة الإبريق .

الخزف :

كانت صناعة الخزف مزدهرة في إيران منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ولقد استخدم الخزافون في عصر البويهيين شتى الوسائل الزخرفية التي عرفت في أوائل العصر الإسلامي . على أنه أمكن تمييز نوع خاص من بين أنواع الخزف ذو الزخارف المحفورة ، وذلك لظهور عناصر زخرفية حية به يبدو عليها مظهر الحياة والقوة تملأ سطح الإناء . واشتهر هذا النوع من الخزف باسم خزف « جبرى »^(١) وتظهر فيه الزخارف بارزة مغطاة بالطلاء بحامطة بمساحات محفورة حفرًا عميقاً في العجينة الحمراء المصنوع منها الإناء ، وذلك نتيجة انتزاع طبقة الطلاء المحيطة بالرسم ، فيبدو الجزء المنزوع طلاؤه بلون قاتم أو أحمر ، في حين تظهر الوحدة المرسومة بارزة مغطاة بالطلاء الشفاف ، وبالرغم من جمال هذه الزخارف إلا أن أسلوبها البدائي يدل على أن إنتاجها من المصانع الريفية . وكان لهذا النوع من الخزف مراكز متعددة في شمال إيران أشهرها إقليم جاروس ، كما وجدت نماذج منه في إقليم كردستان ومازندران .

(١) أطلق تجار الآثار اسم «جبرى» وهو اسم عبدة الشمس في إيران على الخزف ذي الزخارف الحية ، لاعتقادهم أن من قام بإنتاجه لا يمكن أن يكون مسلماً ، ونسبوه إلى عبدة الشمس قبل انتشار الدين الإسلامي .

ويمكن تمييز نوعين من بين أنواع هذا الخزف . الأول يتميز بلون واحد وحفر غير عميق ، والنوع الآخر يتميز بتعدد ألوان الطلاء الزاهية التي تكون عادة بالألوان الأصفر والأخضر مع بقع خضراء . ويظهر في زخارف هذا النوع من الخزف تعدد أشكال العناصر الحية كالحیوانات والطيور الخرافية ، كما وجد في بعضها زخارف آدمية (ش ٤٧) . ويظن بعض الباحثين^(١) أنها ربما تمثل شخصية الملك « ضحاك » الموجودة في مخطوطة الشاهنامه « تاريخ الملوك » . وكان الشاعر الفردوسي مقيماً في بلاط الملك محمود الغزنوي في أفغانستان . وانتهى من كتابة المخطوطة عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م . وإذا كان هذا الفرض صحيحاً فيمكن اعتبار هذا الرسم أول محاولة لتصوير هذا المخطوط المشهور .

المنسوجات :

كتب مؤرخو العصور الوسطى المسلمون كثيراً عن ازدهار صناعة النسيج في إيران في العصر العباسي ، ولقد كانت هذه الصناعة متقدمة في عصر البويهيين . ومن المنسوجات التي تنسب إلى عصرهم قطع حريرية موزعة على بعض المتاحف العالمية ترجع صناعتها إلى القرن الرابع الهجري أي العاشر الميلادي . ولقد زينت هذه القطع بزخارف حية ونباتية إلى جانب العناصر الكتابية . وتساعد هذه العناصر الكتابية على تمييز هذه القطع وصبغها بالصبغة الإسلامية ، حيث إن الكثير من هذه العناصر الحية مثل الحيوانات المجنحة أو شجرة الحياة التي يحفها حيوانات أو طائران ، والآدمي الذي يصارع أسدين^(٢) (ش ٤٨) كانت معروفة قبل الإسلام .

(ب) الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) (٨٧٤ - ٩٩٩ م)

استقرت هذه الأسرة التي يرجع نسبها إلى السامانيين في بلاد ما وراء النهر ، وكانت عاصمتهم الأولى بخارى ثم سمرقند في إقليم التركستان . وقد تمكنوا في عام ٢٨١ هـ - ٩٠١ م من ضم إقليم خراسان وعاصمته نيشابور (شمالي أفغانستان) إلى

(١) انظر جروبه ص ٤١ World of Islam. Ernst. I. Grube, Paul Hamlyn, London 1970.

(٢) عرفت شخصية جلجامش بطل الأساطير السومرية عند شعوب العالم القديم انظر كتابتنا فنون الشرق الأوسط القديم ص ١٢٥ .

سلطانهم . وكان عصر الدولة السامانية من أزهر عصور الأقاليم الإسلامية ، وكان بلاطهم يجمع رجال العلم والأدب والشعر . ويعد عصرهم عصر النهضة للفن الإيراني القوي .

العمارة :

لم تلق الحفريات التي قام بها متحف المتروبوليتان في نيشابور الضوء الكافي على العمائر التي أقامها السامانيون في القرن التاسع الميلادي . إلا أنه يمكن معرفة بعض المعلومات عن الأساليب الفنية المعمارية لذلك العصر ، من ضريح « إسماعيل بن أحمد » الساماني الذي توفي عام ٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م ، وقد عثر عليه في بخارى .

أقيم هذا الضريح على مساحة مربعة (ش ٤٩) ، ولقد استخدم الطوب الآجر على نطاق واسع في عمارة هذا المبنى حيث غطيت واجهاته الأربع من الداخل ومن الخارج بقوالب الآجر في ترتيب زخرفي جميل . ويظهر هذا الأسلوب الزخرفي لعمارة الجدران لأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية . ويعلمو الضريح قبة كما يوجد في أركانه الأربعة أعمدة متصلة بالجدران تنتهي بأربع قباب صغيرة لا تظهر في داخل المبنى ، وكان الغرض منها التأثير الزخرفي فقط . ويعلمو الجدران الأربعة لإفريز به صف من الفتحات الصغيرة تحق الرقبة التي شيدت عليها القبة . ويعد هذا أيضاً ابتكاراً جديداً في العمارة الإسلامية ، ولقد انتقل هذا الابتكار إلى آسيا الوسطى والهند وإيران فيما بعد . ولا شك أن هذا الضريح يعد من أهم العمائر التي شيدت في العهود الإسلامية الأولى في إيران .

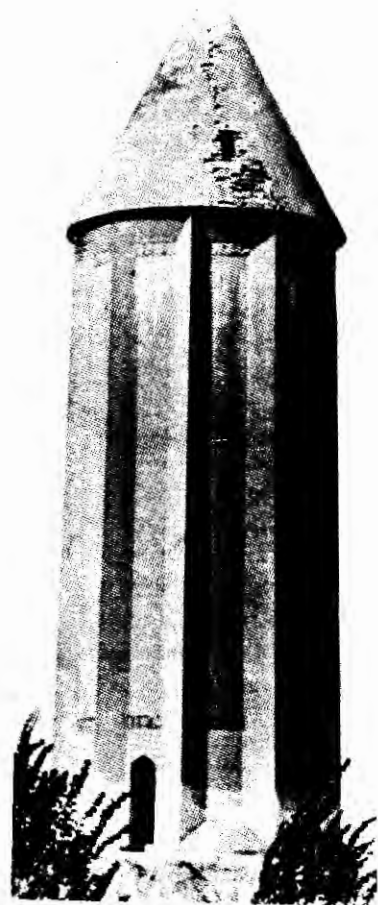
ومن الأضرحة المبتكرة المشيدة على شكل برج ، ضريح يعرف باسم جنبادي قابوس (ش ٥٠) شيده حاكم إقليم جرجان الذي كان يدعى « قابوس » شمالي غرب نيشابور في حوالي (٣٩٧ - ٣٩٨ هـ) (١٠١٦ - ١٠١٧ م) . ويعد هذا الضريح أكبر وأقدم مبنى معروف من الأضرحة البرجية التي ظهرت في العمارة الإسلامية في إيران في العهود الأولى . ولو أن فكرة تشييد هذا المبنى كانت بغرض استخدامه كضريح ، إلا أنه من المعتقد أنه كان رمزاً لقوة الحاكم السياسية .

شيد هذا الضريح على قاعدة نجمية الشكل قطرها حوالي ١٥,٢٥ متراً ، ويبلغ



(شكل ٥٢)

طبق من الخنزف به زخارف محفورة
من صناعة إيران العصر الساساني في
القرن ٥ - ١٠ م ، حالياً بمتحف
اللوفر ، باريس .

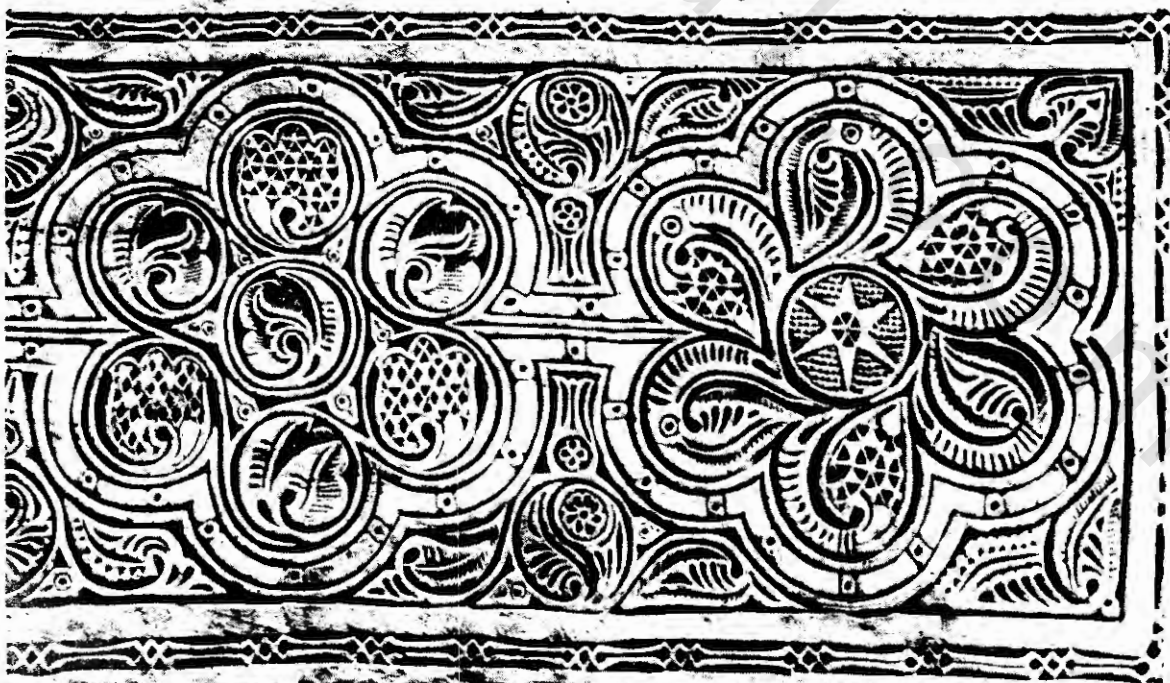


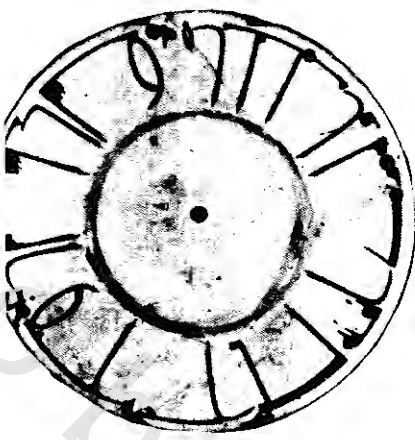
(شكل ٥٠)

ضريح « جمادى قابوس » ، حاكم
إقليم جرجان بإيران ، وهو أقدم
ضريح برجي في العمارة الإسلامية
٣٩٧ هـ - ١٠٠٦ م .

(شكل ٥١)

زخارف جصية عثر عليها في مباني
مدينة نيشابور ، خوراسان بإيران ،
القرن ٥ - ١٠ م ، حالياً بمتحف
المتر وبوليتان ، نيويورك .





(شكل ٥٤)

طبق من الخزف من تركستان به زخ
كتابية بالحط الكوفي ، متحف الآ



(شكل ٥٣)

سلطانية من الخزف من نيشابور ،
إقليم خوراسان بإيران ، بها زخارف
ملونة لوحات آدمية وحيوانية ، القرن
٥٤ - ١٠ م ، حالياً متحف
المتر وبوليتان .



(شكل ٥٥)

طبق من الخزف من نيشابور به زخ
كتابية باللون الأسود والأحمر
متحف فريزر واشنطن ، تقضلا
المتحف .

(شكل ٥٦)

قطعة نسيج تخص القائد أبو منصور
بختكين ، إقليم خراسان ، القرن ٤ هـ -
١٠ م العصر الساماني ، حالياً بمتحف
الوفر بفرنسا .



ارتفاع الضريح حوالى ٤٠ و ٥٠ متراً . ويضيق قطر المبنى تدريجياً كلما ارتفع ، كما يعلوه غطاء مخروطى الشكل . ويزخرف جسم المبنى أشرطة من الكتابة المحفورة فى أعلى وأسفل الأسطح الاسطوانية تدل على تاريخ المبنى ولبن شيد .

الزخارف المعمارية :

النحت على الجص :

عثر على بعض الجدران المغطاة بزخارف جصية ملونة فى بعض المباني فى نيشابور ، وتظهر فى بعض تلك الزخارف عناصر نباتية محصورة فى جامات سداسية (ش ٥١) وتضم هذه الجوامع تفريعات المراوح النخيلية ومقتبساتها . ويشبه أسلوب زخارف نيشابور الجصية زخارف كل من سمراء ونايين ، كما نلاحظ أن المبالغة فى زخرفة المسطحات التى اشتهرت بها نايين ظهرت بدرجة كبيرة فى زخارف نيشابور الجصية : وتعد هذه الزخارف حلقة اتصال هامة بين الأسلوب العباسى والسلجوقى ، حيث ينسبها العلماء إلى أواخر القرن العاشر . ويظهر فى بعض زخارف نيشابور استمرار الأساليب السامانية .

التصوير الجدارى :

كشفت حفريات نيشابور عن وجود تصاوير جدارية ملونة ذات موضوعات آدمية يمكن نسبتها إلى العصر العباسى الأول ، أى فى نهاية القرن الثامن أو التاسع الميلادى ، وذلك لأن أسلوبها لا يختلف كثيراً عن أسلوب تصاوير مدينة سمراء التى ترجع إلى القرن التاسع الميلادى . ويمكن تقسيم هذه التصاوير إلى مجموعتين من حيث أسلوب التنفيذ : المجموعة الأولى الموجودة بمتحف طهران حددت أشكالها بخطوط داكنة ثم لونت بلون واحد ، ويظهرها فارس صياد يحمل صقراً على رصغه . أما المجموعة الثانية الموجودة بمتحف المتروبوليتان فنلاحظ أنها متعددة الألوان . ويلاحظ فى طريقة رسم وجه السيدة الموجود بالصورة خليط من الأساليب الإيرانية والتركية المعروفة فى آسيا الوسطى والتى ستظهر بعد ذلك فى العصر السلجوقى ، مثل امتلاء الوجه واستدارته ، وضيق الأعين اللوزية الشكل ، ودقة الفم ^(١) .

(١) يحتفظ متحف المتروبوليتان بقطع فنية كثيرة عثر عليها فى نيشابور أثناء قيام بعثة المتحف بالتفقيب هناك . انظرا . جروبه « ما قبله ش ٩ » .

ومن زخارف نيشابور الطريفة رسوم على شكل اليد أو العينين تظهر في بعض الأحيان بين التفرعات النباتية المنتهية بالمراوح النخيلية ، ويفسر بعض العلماء هذه الأشكال بأن لها معاني سحرية لدفع الشر ، كما يحتمل أن ترمز هذه الأيدي إلى السيدة فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) .

الفنون الصغيرة :

الخزف :

من أهم ما ساهم به السامانيون في الفن الإسلامي هو تشجيعهم لصناعة الخزف ، فازدهرت هذه الصناعة في نيشابور ، كما صارت سمرقند منذ القرن التاسع الميلادي مركزاً مهماً لصناعة الخزف وخصوصاً بعد ضم إقليم خراسان إلى دولة السامانيين . وتدل الأواني الخزفية الكثيرة التي عثر عليها في هذين المركزين على أن الخزف ذا الزخارف المرسومة هو الذي كان مفضلاً عند السامانيين ، بالرغم من إتقانهم للخزف ذي الزخارف المحفورة (ش ٥٢) . ولقد وجدت أنواع من الخزف تعد مقصورة على نيشابور ، كما وجدت بها أوان خزفية تشابه ما عثر عليه في سمرقند .

ولقد زخرفت أواني نيشابور بأشكال نباتية وطيور وحيوانات ووحدات آدمية وأشربة من الكتابة الكوفية ، ورسمت هذه الزخارف بلون واحد أو بعدة ألوان . فيغطي الإناء بلون واحد ، ثم يوزع فوق السطح العناصر الخزفية الملونة التي تكاد تغطي سطح الإناء ، ونجد في أواني نيشابور اهتماماً بالتأثير بالألوان القوية . وأحسن مثال لذلك سلطانية ترجع إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) زخرفت بوحدات آدمية وحيوانية ونباتية بالألوان الأسود والأخضر والأصفر ، (ش ٥٣) على أرضية بيضاء . وتظهر الوحدات الرئيسية التي تزين الجزء المتوسط من السلطانية مرسومة بحجم كبير ويحيط بها زخارف نباتية وطيور تغطي الأرضية . ويلتف حول السلطانية إطار به زخارف كتابية . ويلاحظ أن زخارف الأواني ذات الألوان المتعددة ربما نقلت عناصره من المخطوطات المصورة . وكان للزخرفة الكتابية نصيب كبير من اهتمام الخزافين في خراسان وسمرقند ،

(١) الفنون الإسلامية : م . ديماند ، ترجمة أحمد محمد عيسى ص ٣٩ .

ويظهر ذلك في مجموعة من السلاطين ذات كتابات بلون أسود أو بني غامق أو بنفسجي على طبقة بيضاء تحت الدهان . وتتكون الزخرفة الكتابية الموجودة على سطح الإناء إما من كلمة واحدة في قلب الإناء أو من بعض الكلمات حول حافته (ش ٥٤) . وقد تظهر مع الكتابة مراوح نخيلية أو طيور ، كما يضيف الفنان أحياناً بعض الخطوط القصيرة فوق الكتابات السوداء بلون أحمر (ش ٥٥) لانهاء في سائر أنواع الخزف الإيراني ، أو يرسم الحروف كلها باللون البني الغامق ثم يحددها باللون الأسود . وتدل حفائر نيشابور على أن الخزافين بالرغم من تمكنهم من إنتاج أوان في غاية الدقة في القرنين التاسع والعاشر الميلادى ، إلا أنهم لم يتمكنوا من معرفة سر الطلاء المعدنى ، حيث يلاحظ في بعض الأواني التي عثر عليها أن الخزافين قد قاموا بمحاولات لتقليد طريقة الخزف ذى البريق المعدنى المعروف في بغداد وذلك بتغطيته ببريق لامع . إلا أنهم لم يصلوا إلى معرفة أسلوب الزخرفة بالطلاء المعدنى الموجودة بالعراق .

المنسوجات :

اشتهرت سمرقند كمركز مهم لصناعة النسيج ، ويرجع كثير من العلماء نسبة بعض قطع المنسوجات الحريرية الموجودة في بعض المتاحف والمزينة بأزواج من الحيوانات داخل دوائر إلى إنتاج سمرقند . على أنه أمكن التأكد من نسبة صناعة إحدى هذه القطع الحريرية إلى خراسان في القرن الرابع الهجرى أى العاشر الميلادى ، وذلك من الكتابة الموجودة بها . فنلاحظ بهذه القطعة (ش ٥٦) اسم القائد أنى منصور بختكين المتوفى في خراسان عام ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م ، وكان هذا القائد في بلاط « عبد الملك بن نوح » أمير خراسان وبلاد ما وراء النهرين . ويظهر في زخارف هذه القطعة فيلان متقابلان يحف بهما صف من الجمال والطواويس .

الغزنويون

(الغزنويون (٣٥١ - ٥٨٢ هـ) (٩٦٢ - ١١٨٦ م)

تمكنت الأسرة التركية الحاكمة في ولاية « غزنة » - حالياً أفغانستان - من الاستقلال سياسياً عن الخلافة العباسية في بغداد، وكان ذلك في عصر الحاكم « سابوكتاجين » (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) (٩٧٦ - ٩٩٧ م) . ونجح خليفته السلطان محمود الغزنوي (٣٨٩ - ٤٢١ هـ) (٩٩٨ - ١٠٣٠ م) في توسيع رقعة دولته وذلك بضم شمالى الهند وإقليم البنجاب إليه . وانتهى حكم هذه الأسرة التركية بغزو تركي آخر قام به السلاجقة . ولقد كان عصر هذه الأسرة من أزهر عصور الأقاليم الإسلامية ثقافة وأدباً ، والتحق ببلاط السلطان محمود ، الشاعر الفارسي الكبير « الفردوسي » (٩٣٥ - ١٠٢٠ م) وأتم كتابة مخطوطه « الشاهنامه » أو « كتاب الملوك » للسلطان في عام ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م . وتجمع هذه المخطوطة بين الأحداث التاريخية والأساطير الفارسية القديمة .

العمارة :

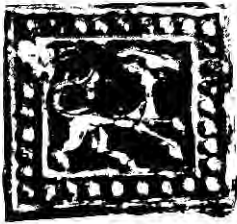
لم يبق للأسف أثر للجامع الذي شيده محمود الغزنوي راعى الفنون ، ويقتصر ما تبقى من عمارات الغزنويين على برجين لا يزالان قائمين ، ينسب أحدهما إلى السلطان محمود ، وشيد الآخر السلطان مسعود الثالث في عام ١١١٤ م (ش ٥٧) . ويتضح من دراسة هذه الأبراج ، ميل الغزنويين إلى استخدام الطوب الآجر في إحداث تأثير زخرفي جميل بالسطح الخارجى . ويظهر بأعلى البرج أشربة من الكتابة الكوفية المورقة فوق أرضية من زخارف الأرابسك (٥٧ ا) .

ولقد كشفت الحفريات التى تمت فى مدينة « لاشكارى بازار » عن وجود تصاوير جدارية ملونة لشخصيات آدمية (ش ٥٨) فى قصور الغزنويين ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ويظهر من دراسة هذه الآثار تأثر الفنان بأسلوب



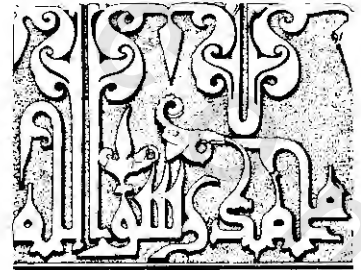
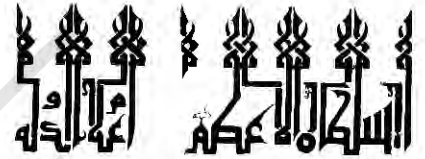
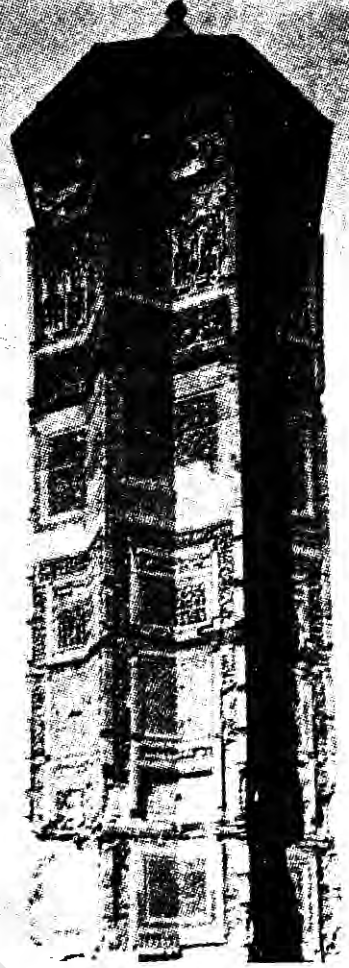
(شكل ٥٨)

تصوير جداري عشر عليه في قصور
الغزنويين ، مدينة لاشكاري بازار ،
أفغانستان



(شكل ٥٩)

ألواح حجرية وخزفية عشر عليها في
ولاية غزنة ، أفغانستان ، القرن ١١ هـ -
١٠ م حالياً مجموعة خاصة بأمريكا .



(شكل ٥٧ و ١٥٧)

منارة الملك مسعود الثالث بولاية غزنة
(حالياً أفغانستان) أوائل القرن
١١ هـ - ١٢ م . ونرى في ٥٧ أشرطة
من الكتابة الكوفية المورقة الموجودة
بأعلى المنارة .

تصاوير مدينة سمراء (١). كما أسفرت الحفريات عن بلاطات وألواح منقوشة حجرية كانت تغطي الجدران بوحدات حيوانية (ش ٥٩).

يتضح من دراسة الفن العباسي ، أن انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى العراق كان له أثر كبير في الثقافة الإسلامية ، التي كانت متأثرة حتى ذلك الوقت بالتأثيرات الكلاسيكية الموجودة في سوريا . وكان من نتيجة انتشار الثقافة الإيرانية على يد العناصر الفارسية التي استعان بها الحكام في الخمسين سنة الأولى من حكمهم ، بدء حقبة جديدة في الفن الإسلامي تظهر بها المؤثرات الفنية الساسانية ، في الوقت الذي قلت فيه الأساليب الهيلينية والبيزنطية . وبدأ ظهور هذا الأسلوب الجديد بعد تشييد مدينة بغداد . كما تأثر الفن العباسي بفنون الأتراك الذين ظهر نفوذهم لأول مرة في العالم الإسلامي في العصر العباسي ، حيث اكتسب الفن الإسلامي عناصر وأساليب زخرفية مستمدة من أواسط آسيا لم تكن معروفة في الفن البيزنطي والفن الساساني . ولقد بدأ ظهور هذا الطراز في مدينة سمراء . وتعد طريقة الحفر المشطوف التي ظهرت في المنحوتات الحجرية والحصية والخشبية في أوائل العصر العباسي ابتكاراً خاصاً بطراز الفن العباسي الذي طعم بالفن التركي . وكان من نتيجة امتزاج الإيرانيين والترك بالعرب في العصر العباسي ، دخول أشكال زخرفية جديدة في الفن الإسلامي تظهر فيها ملامح من الفنين الساساني والتركي ، ويرجع الفضل إلى هذا العصر في ظهور الزخارف الخجدة المحورة عن العناصر الطبيعية الكلاسيكية . ولقد أثرت هذه الزخارف الهندسية في تطور زخرفة التوريق ، ويعد ذلك الخطوة الأولى في ابتداء ظهور أسلوب زخارف الفن الإسلامي الذي عرف باسم الأرابيسك . ومن أهم إنجازات العصر العباسي اكتشاف طلاء الأواني الخزفية بالبريق المعدني ، ولقد انتشر هذا الأسلوب إلى بقية العالم الإسلامي .

ولقد انتقل هذا الطراز العباسي الذي ظهر في سمراء إلى الولايات الإسلامية الأخرى التي استقلت عن الدولة العباسية وذلك عن طريق الحكام المحليين ، فظهر في مصر في العهد الطولوني ، وفي إيران في عصر البويهيين ، وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر على يد السمانيين ، وفي أفغانستان والبنجاب على يد الغزنويين .

(١) انظر مقالة الأستاذ "Schlumberger G." — Le Palais Ghasnavid de Lashkari Bazar

في مجلة (XXIX) Syria ، ص ٢٥١